قلوب عبير

فيوليت وينسبير

دليلى

www.elromancia.com
مرمورية

قلوب عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. K 11

دليلي

أحست فانيسا بيدي الرجل الثقيلتين على كتفها ترفعانها عن الأرض وتدفعان بها الى القاعة.

ـ يجب ترك هذا المكان بسرعة، ليس باستطاعتنا عمل أي شيء للسيد كارول، والمركب بانتظارنا قرب النهر.

لم تفهم فانيسا شيئاً مما جرى. حاولت تخليص ذراعها من قبضة الرجل. وللحظة لم تعرف ان كان صديقاً ام عدواً، ورمقته بنظرة تحمل كل رعب الدنيا.

فهم الرجل وقال موضحاً:

ـ عمك مات أثر نوبة قلبية يا آنسة كارول. الرصاصة التي سمعتها أطلقتها على شبح كان يتحرّك في الخارج.

على الرغم من تصديق فانيسا قوله الا انها بقيت جامدة مكانها. اقترب منها الرجل وهمس بلغته الغريبة:

ـ التمرّد اخذ طريق الثأر الاعمى. عليك قبول مساعدتي يا آنسة سواء رضيت بذلك ام لم ترضي.

لبنان ١٠ ل.ل.	الكويت ١ د	اليمن ٤ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ١٠ ل.س.	الامارات ١٢ د	تونس ١٥٠٠ د	U.K £ 150
الاردن ٨٠٠ ف	البحرين ١٥٠٠ د	ليبيا ١ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ١٢ ر	المغرب ٥ د	Greece Drs 200
السعودية ١٢ ر	عمان ١٥٠٠ ر	مصر ١٠٠ ق	Cyprus P 1500

١- « الوقت قصير . علينا الخروج بسرعة . ألا تسمعين ؟» ارتجفت اوصال فانيسا ، فقد كان صوت الطبول يصم الآذان . وتعرف ان الرجل الواقف امامها قادر على استعمال العنف .

www.elromancia.com

رفعت فانيسا اصابعها المرتجفة الى رأسها . كانت تجلس دون حراك تحدق في ستائر غرفة نومها المطلة على الأدغال القريبة . قرع الطبول يقترب اكثر فأكثر ويعلو وسط هدأة المساء . صوت آخر قريب جداً مزّق سكون البيت ، ماذا ؟ طلقة مسدس ؟

جمدت فانيسا مكانها خائفة . . . ترى ، ما الذي ينتظرها في الطابق السفلي ؟ لكن الحب والشعور بالقلق على عمّها تغلبا على خوفها فهرعت الى مكتبه صارخة . في القاعة المؤدية الى غرفة المكتب وقفت فانيسا وجهاً لوجه امامه . . . الرجل المديد القامة ، في ثيابه من الخاكي . ملأ الفزع قلبها عندما رأت المسدس المتدلي من يده .

ـ أنت يا سيد !

خرجت الكلمات من فمها بمرارة وهي تتخطاه لدخول المكتب . كان المنظر رهيباً . عمّها برأسه الأشيب الحبيب كان كومة ملقاة على الأرض . ركعت فانيسا امامه بلهفة منادية :

ـ عماه ! عماه ! أجبني . هل انت مريض ؟

لكن فمها الذي التصق بجبين الرجل الكهل ارتد عنه بسرعة . كان جبينه بارداً كالثلج .

ـ هيا بنا يا آنسة .

أحست فانيسا بيدي الرجل الثقيلتين على كتفها ترفعانها عن الأرض وتدفعان بها الى القاعة .

ـ يجب ترك هذا المكان بسرعة ، ليس باستطاعتنا عمل أي شيء للسيد كارول ، والمركب بانتظارنا قرب النهر .

لم تفهم فانيسا شيئاً مما جرى . حاولت تخليص ذراعها من قبضة الرجل . للحظة لم تعرف ان كان صديقاً ام عدواً ، ورمقته بنظرة تحمل كل رعب الدنيا .

فهم الرجل وقال موضحاً :

ـ عمك مات اثر نوبة قلبية يا آنسة كارول . الرصاصة التي سمعتها اطلقتها على شبح كان يتحرك في الخارج .

على الرغم من تصديق فانيسا قوله الا انها بقيت جامدة مكانها . اقترب منها الرجل وهمس بلكنته الغريبة :

ـ التمرد اخذ طريق الثأر الأعمى . عليك قبول مساعدتي يا آنسة سواء رضيت بذلك أو لم ترضي .

ـ ماذا تقصد بذلك يا سيد ؟

ـ هل تريدين شرحاً مطولاً ؟ عمك الطيب ، رحمه الله ، كان صديقي وأنا أنوي تخليصك من هذا المكان شئت أم أبيت .

قال ذلك وقبض على ذراعها بقوة مضيفاً :

ـ الوقت قصير . علينا الخروج بسرعة . الا تسمعين ؟ قرع الطبول يقترب وأنا لا أحب أن استعمل العنف لاخراجك من ادغال اورداز .

ارتجفت اوصال فانيسا ، فقد كان صوت الطبول يصم الآذان وكانت تعرف جيداً ان الرجل الواقف امامها ، دون رفاييل دو دوميريك قادر على استعمال العنف معها . في الواقع كان قد بدأ يسحبها من الباب مصطحباً اياها الى العتمة الاستوائية في الخارج .

مسافة نصف ميل تفصل البيت الذي تركاه وراءهما عن النهر . كان الدون رفاييل يساعد فانيسا لتسرع وسط الادغال الاستوائية مزيحاً الأغصان المتشابكة من امامها .

أخيراً وصلا الى حيث المركب . ساعدها الدون على نزول الدرجات المؤدية الى القمرة فرمت فانيسا بنفسها على السرير وهي ترتجف .

في ظلمة القمرة ملأت المرارة قلب فانيسا وهي تستعيد ما جرى في الأيام القليلة الماضية . كانت الثورة قد بدأت وامتدت الى مسافة قريبة من اورداز حيث احرق الثوار مزرعة على من فيها . تذكر يومها ان الدون رفاييل جاء الى عمها راجياً إياه ان يترك اورداز ويذهب معه الى جزيرة لويندا حيث يسكن . ليناردكارول ، عم فانيسا ، والذي قضى في اورداز اكثر من ثلاثين سنة ، لم يقبل عرض الدون . لم يصدق ان العمال الذين أحسن معاملتهم يمكن أن ينقلبوا ضده . حاول الدون اقناع فانيسا بالذهاب معه ورفضت هي ايضاً .

ـ آمل ألاّ تندمي على عنادك يا آنسة كارول .

قال الدون ذلك بغطرسة السيد الاسباني الذي لم يكن معتاداً على قبول الرفض من امرأة . ثم أكمل ببرودة :

ـ يظهر ان الانكليز يندفعون وراء شجاعة مزيفة ، وعندما يفوت الأوان يدفعون ثمن غلطتهم بحياتهم .

ثم نظر بغضب الى عمها قائلاً :

ـ سيد كارول ، ارجو ان تلح على الآنسة بالذهاب معي حالاً .

ـ آسف يا دون رفاييل فنحن لا نجبر نساءنا على القيام بأي عمل ، خاصة اذا كنّ ذوات شعر أحمر .

قال العم ذلك متطلعاً الى فانيسا ومبتسماً .

ـ حسناً ، عندك رقم هاتفي . اتصل بي ان ساءت الأمور .

ثم انحنى بتهذيب وخرج تاركاً فانيسا تصلي ان تكون تلك المرة الأخيرة التي ترى فيها وجهه .

في الاسبوع التالي ساءت الامور اكثر . وبالتحديد ، جاء هذا اليوم عندما ترك الخدم البيت الواحد تلو الآخر . عند ذلك طلب العم كارول من فانيسا ان تجهز القليل من الأمتعة التي قد يحتاجانها وذهب ليتصل هاتفياً بالدون رفاييل متمتماً :

ـ كان الدون على حق ويعرف الناس هنا أكثر مني .

ذاك ما حدث وما كسر قلب عمها العزيز وقتله . وها هي الآن في الحادية والعشرين من عمرها وحيدة . . . وحيدة . عمها كان كل ما بقي لها من أهل بعد ان قتل والداها في حادث سيارة وجاءت لتعيش معه في مزرعة القهوة على شاطىء نهر أورداز .

نظرت فانيسا من نافذة القمرة الصغيرة وهي مستغرقة في أفكارها لترى ألسنة اللهب المتصاعدة من بعيد . احرقوا بيتها الأبيض الجميل ! احرقوا كل ذكرياتها مع عمها الطيب . . . وبدأت ترتجف

مثل ورقة صفراء في يوم خريفي .

بعد أن وجه الدون سير المركب نزل الى حيث كانت فانيسا تجلس في العتمة . اضاء القنديل وسألها ان كانت بخير .

كان صوته بارداً وبعيداً . ترى ، ألم يتوقع أن تكون فانيسا شاهدت بيتها يحترق ؟ الا يظن انها بحاجة الى مواساة وعطف ؟ ام كان يتجنب ذلك كي لا يراها تنفجر بالبكاء ! وبدل المواساة قال بغضب :

ـ كان الجنون بعينه رفضك عرضي في الاسبوع الماضي . واليوم لو تأخرت قليلاً لفاتني الوقت وعجزت عن انقاذك .

أجابت فانيسا بصوت مرتجف :

ـ لم استطع ترك عمي وحده . كان كلّ اهلي . لم يخطر بباله أبداً أن ينقلب عمّاله ضده . لقد أحبوه وأحبهم . لماذا يا سيد ؟ لماذا فعلوا ذلك ؟

ـ لأن قائدهم أغراهم بالوعود ، بثروات الرجل الأبيض كلها ان هم انقلبوا عليه . اتركي الذكريات وراءك . عائلتي تنتظرك . بامكانك البقاء معنا قدر ما تشائين .

ـ شكراً لك . لا أعرف كيف أرد جميلك .

ـ من يتحدث عن رد الجميل يا آنسة !

وفجأة تغيرت لهجته ومرر اصابعه في شعر فانيسا بلطف وحنان . ثم قام وأحضر لها كوباً من الشاي فقد كانت ترتجف .

عندما هدأت قليلاً خفض الدون النور وطلب منها ان تحاول النوم فما زالت امامهما بضع ساعات قبل الوصول الى لويندا كما قال .

تمددت فانيسا على السرير الضيق محاولة النوم لكن صوراً كثيرة مرت في مخيلتها . تذكرت الأوقات التي كان يأتي فيها الدون لزيارة

عمها في اورداز . كانا صديقين حميمين رغم فارق السن الكبير بين الرجلين . تذكرت كم كانت تراه غريباً في ثيابه البيضاء ، كما تذكر الطريقة المهذبة التي كان يكلمها ويعاملها بها .

مرة ، عندما كانت مجموعة من الشبان في بيت عمها ، جاء الدون للزيارة . كانت حفلة راقصة وصاخبة وكانت فانيسا الفتاة الوحيدة الحاضرة . أحد الشبان وكان يدعى جاك كونروي راقصها كثيراً تلك الليلة وأحست بميل اليه . تذكرت كيف كان الدون يقف بعيداً يدخن سيكاراً ويراقبها ببرودة . بعدها قال لعمها :

ـ لا زالت طفلة .

ولأنها ما زالت طفلة لم تكن تميل الى الدون ، ووصلت الأمور الى ما وصلت اليه . . . ربما لو قبلت عرضه الاسبوع الماضي لما مات عمها بنوبة قلبية . . . ربما كان ذهب معها الى لوبندا . وأخذت الدموع تنهمر بغزارة من عيني فانيسا المتعبتين الى ان غلبها النوم .

بعد ذلك بقليل استفاقت فانيسا على صوت خطوات الدون القادم من غرفة القيادة . أخبرها بلهجته المهذبة الباردة ان لوبندا اصبحت قريبة . وطلب منها ان تغتسل وترتب نفسها استعداداً لملاقاة عائلته .

شعرت بالغيظ لطلبه . هل من المفروض ان تكون بكامل اناقتها ليراها أهله ؟ وبعد رحلة الهرب المضنية في الأدغال ؟ وماذا لديها من ثياب غير الثياب الممزقة الوسخة التي تلبسها ! كل شيء احترق . . . كل شيء . .

بثقل كبير مشت فانيسا نحو المغسلة ورشت وجهها وشعرها وعنقها بالماء البارد المنعش . اذن عليها ان تكون حسنة المظهر عندما يستقبلها أهل هذا الرجل الاسباني المتعجرف البارد ! كم تكره

الاعتماد على غير نفسها ، وعليه بالذات .

حاولت فانيسا جاهدة أن تمسد ثيابها وتخفي التجعيدات البشعة فيها ، اما صورة وجهها في المرآة فكانت متعبة وشعرها الجميل مشعثاً . تناولت فرشاة الدون الكبيرة وحاولت السيطرة على خصلات شعرها المتشابكة كأغصان غابة استوائية ، ثم عادت الى الحجرة واتجهت نحو ظهر المركب .

كانت أشعة الشمس الأولى قد بدأت تتسلل وسط ظلمة الليل الاستوائي متيحة لفانيسا ان ترى اجمل منظر وقعت عليه عيناها . شاطىء فضي لبحيرة هادئة تحيط بها أشجار جوز الهند الجميلة ، عند قدمي تلة عالية تستريح فوقها بكل شموخ قلعة توحي بالعصور الرومنطيقية الساحرة .

ـ رائع ! رائع يا سيد !

ولمعت عينا فانيسا الخضراوان في وجهها الشاحب المتعب . نظر اليها الدون مبتسماً ثم حوّل نظره الى المكان الجميل حوله قائلاً :

ـ مع ان القلعة مبنية على طراز القلاع العادية ، الا ان حجرها المميز ذا اللون الوردي المذهب هو الذي يضفي عليها هذا السحر .

همست فانيسا مأخوذة :

ـ كاستيلو دورو ، وكأنها خارجة من كتاب أساطير !

ـ ابنتي بالتبني ، فقد مات والداها وكانا صديقين لي ، تدعوها باسم آخر .

وابتسم ابتسامة ماكرة ثم أكمل :

ـ تسميها « حبس الأسيرة الشقراء » . فتاة رومانسية . ستصبحان صديقتين كما أعتقد .

لمست فانيسا بعض السخرية الخفية في كلامه وفي عينيه اللتين

تطلعتا اليها طويلاً قبل أن يوجه اهتمامه الى المركب . أشعة الشمس على وجهه لمعت للحظة في عينيه . وعرفت فانيسا انها كانت مخطئة وان عينيه ليستا سوداوين . أحست بالرجفة وأدركت ان عليها ان تكون دائماً حاضرة لمواجهة مفاجآته .

ـ انظري !

قال الدون مشيراً بيده الى مكان قريب من المرسى . كان رجلان يقتربان من جهة الصخور . أحدهما تلقى الحبل الذي رماه له الدون ، والآخر ساعد فانيسا على النزول الى الشاطىء . كان كلا الهنديين يتفحصان فانيسا بنظرات فضولية . وعرفت هي من جمال وجهيهما البربري وعظام خدودهما العالية ان بهما دماً اسبانياً . كثير من هؤلاء الهنود يتحدر من نسل العبيد الذين كان يملكهم الاسبان الأولون على الجزيرة .

عندما كان الرجلان يوجهان الحديث الى الدون كانا يسميانه كومبادر . فعرفت فانيسا انهما من عماله الكثيرين على مزارع الفاكهة والبهارات ومعامل العطور التي يملكها .

سار الدون الى جانبها بمشيته الرشيقة وأخذ يخبرها ان الرجلين اصطادا بعض السمك ويريدان تحضير الفطور لهما على الشاطىء . أحست فانيسا بالجوع عندما وصف لها الدون كيف سيحضران السمك على نار قشور جوز الهند . يجب أن تأكل لتستجمع قوتها لملاقاة عائلة الدوميريك .

تصاعدت رائحة السمك المشوي اللذيذة . وعندما تم تحضيره أكلت فانيسا بنهم كبير . لم تذق في حياتها أطيب من هذا السمك وكان حليب جوز الهند الذي قدمه لها الدون منعشاً ولذيذاً . بعد الانتهاء من الطعام جاء أحد الرجلين لتنظيف المكان . شكرته

فانيسا . ابتسم لها وذهب لغسل الصحون في ماء البحر وهو يغني لنفسه .

سألت فانيسا الدون بفضول :

ـ ماذا تقول كلمات الأغنية يا سيد ؟

أجابها ببساطة :

ـ تقول ان البحر مثل الحب . . . قاسٍ وجميل .

ثم أكمل قائلاً عن الرجلين :

ـ جاليتو وبيريكو أخوان . اناس بسطاء استخدمهم لقضاء بعض الحاجيات في القلعة .

ـ ألا تخشى أن تمتد ثورة أورداز الى هنا يا سيد ؟

ـ لا . لويندا بعيدة ومقطوعة عن الثوار . والاسبان فيها منذ القرن السادس عشر . تعرفين طبعاً اننا نحن الاسبان مثلكم أنتم الانكليز تماماً . . . لنا محميات كثيرة .

هنا ينتهي التشابه ، قالت فانيسا لنفسها وهي تعبث برمل الشاطىء وتحدق في البحر . تقول الاشاعة ان من فجّر الثورة في أورداز رجل اسباني . وهنا عادت المرارة الى نفس فانيسا وهي تتذكر ما حدث . مرارة المستقبل المظلم الممتد أمامها .

يد الدون على كتفها أعادتها الى الحاضر . نظر اليها قائلاً :

ـ ليلة أمس كنت ما زلت غاضبة وغير مصدقة . كان الأمر صدمة لك . ووقت الصدمة يكون الألم أقل . الآن انت حزينة ومتألمة . تفكرين بما حدث . وبحظك التعيس الذي أوقعك بين يدي هذا الرجل الاسباني المتعجرف الآتي من جزيرة لويندا . لا بأس يا آنستي ، الوقت كفيل بمسح كل آلام الدنيا . كوني شاكرة انك ما زلت على قيد الحياة .

ـ بالطبع انا شاكرة لذلك يا سيد . لكن ماذا افعل الآن ! المزرعة احترقت . عمي مات . ولست مدربة للقيام بأي عمل . طبعاً لا بد ان نحصل على تعويض عن حرق المزرعة لكن . . .

ـ آنسة كارول . ارجو الا تزعجي نفسك بالتفكير في المال . اعلم انك فقدت كل شيء . لكن طالما انت ضيفتي . . لا . . .

وصمت عندما لاحظ احمرار وجهها ثم قال :

ـ هل يصعب عليك تقبل ضيافة رجل كان صديقاً حميماً لعمك ؟

ثم ابتسم بمرارة وسألها :

ـ هل اسأت معاملتك ؟

ـ ليس الأمر كذلك يا دون رفاييل ، لكن . . .

ـ لكنك لا تحبينني . حسناً . علينا تناسي الأمور الشخصية . الآن ، أنت طفلة وحيدة وبحاجة الى مساعدة . هذا كل شيء .

عليها أن تحاول قبول ضيافته شاكرة . لن يطول الوقت . ستعرف السلطات الانكليزية بما جرى وستقوم بالتعويض عليها عندما تتخلص من الاعتماد على هذا الرجل القوي الذي سيقرر سير حياتها في الأسابيع المقبلة .

كان الدون يحدق في رمال الشاطىء الذهبية عندما قال بلهجة مرحة وكأنه يخاطب أحد السواح :

ـ ستحبين بلدة لويندا . انها هادئة وفي نفس الوقت مثيرة . . . كالحب الحقيقي .

فوجئت فانيسا بكلام كهذا يصدر عن الدون ، وكانت تتخيله ممن يحبون بعنف . فمه القاسي قليلاً أوحى بذلك . ربما تكون مخطئة . مهما يكن فهي بالتأكيد ، لا تحسد المرأة التي يحبها هذا الرجل ، أو سيحبها . ستكون جميلة بالطبع ، فالدون رجل وسيم

ذو ذوق رفيع . وستحسد كل نساء البلدة تلك المرأة التي ستكون سيدة القلعة وزوجة هذا الرجل الاسباني الكامل .

انقطعت تأملات فانيسا عندما ظهر فارس واقترب منهما . كان الفارس فتاة ذات شعر أسود طويل تعبث به الريح ، لها عينان وحشيتان جميلتان . بحركات عنيفة مسرحية أوقفت الفتاة الفرس ونظرت اليهما . أطلق الدون لعنة غاضبة ووقف مواجهاً للفتاة التي ربما كانت في السادسة عشرة من عمرها ، صبيانية التصرف ، وفي عينيها نظرة تحد وترقب .

بدأ الدون يكلمها باللغة الاسبانية غاضباً ، موبخاً اياها كما ظهر من لهجته العنيفة . كانا ينظران الى بعضهما كقطتين غاضبتين مستعدتين للانقضاض .

ـ قلت لك ألف مرة أن لا تركبي بهذه الطريقة المجنونة .

وأخذ يكلم الفتاة باللغة الانكليزية وكأنه تذكر فجأة وجود فانيسا الى جانبه :

ـ انها فرس أصيلة لا حيوان في سيرك ! ان لم تغيري طريقتك منعتك من الركوب .

ـ تمنعني ! انها كلمتك المفضلة أيها السيد .

قالت الفتاة ذلك ورفعت رأسها بشموخ متطلعة الى فانيسا :

ـ أنت الفتاة الانكليزية القادمة من أورداز ، اليس كذلك ؟ لست كما توقعتك . شعرك أحمر وعيناك بلون الزمرد .

ابتسمت فانيسا رغم شعورها ببعض الحرج ، فهي فتاة انكليزية متحفظة وغير معتادة على صراحة الشعب اللاتيني هذه .

تدخل الدون رفاييل وعرّف فانيسا على الفتاة . . . باربرا دل كويروس . سألتها الفتاة بطريقتها المتسرعة :

- هل ستقيمين معنا في الكاستيلو يا آنسة فانيسا كارول ؟

وعندما رأت ثياب فانيسا الممزقة المجعدة أضافت :

- سأعيرك بعضاً من ثيابي . ستناسبك فمقاسك ومقاسي متشابهان .

شكرتها فانيسا ونظرت باتجاه الدون الذي ظهر عليه السرور لعرض باربرا . وقال واضعاً يده على كتفها :

- الآنسة كارول تمر بفترة قاسية فقد فقدت عمها وأحرق بيتها . ستبقى معنا بعض الوقت . كوني لطيفة معها يا عزيزتي . انتما من عمر متقارب وكلاكما طفلتان في بعض الأمور . آمل أن تنسجما .

ابتسمت له باربرا وغمزت بعينها قائلة :

- احياناً تريني معدنك الاسباني البارد القاسي ، واحياناً اخرى ديبلوماسيتك المخملية . لن أكون المرأة التي تقع في حبك فأنت لا تطاق عندما تكون غاضباً ، وعندما يتفجر حنانك يغرق الجميع .

- تتكلمين بطريقة لا اسمح الا للقليلين بالتجرؤ على استعمالها معي يا باربرا .

ولمعت اسنانه بانزعاج ولكن دون غضب ، وكأنه لا يعرف كيف يتصرف مع هذه الفتاة الغريبة . ثم أكمل مهدداً :

- ولا تعيدي ركوب الفرس بهذا الشكل . انك تجعلين العرق يتصبب منها .

- لكنها تحب ذلك .

وربتت باربرا على عنق الفرس بحنان ثم اضافت :

- الحقيقة اني رأيت المركب وأنا في القلعة ، وعندما لم تصل انشغل بالي . . . أترى كم انا مولعة بك . . . رغم كل عيوبك !

عند ذلك أخبرها الدون عن فطورهما على الشاطىء ثم قال :

- سأرسل احد الرجال ليحضر السيارة من القلعة . أنت لا زلت متعبة يا آنسة كارول ولا اظنك تقوين على السير .

أكمل كلامه واتجه نحو الرجلين . في هذه الأثناء نظرت باربرا الى فانيسا وقالت :

- انت لا تحبين الكومبادر يا آنسة كارول ؟

جفلت فانيسا من المفاجأة فضحكت باربرا وأخذت تربت على ظهر فرسها .

- الأمر واضح . انت لا تحبين هذا المكان أو الأصح ، لا تحبين وجودك في هذا المكان . . . على هذه الجزيرة التي يملك الكومبادر جزءاً منها مما يجعلك تفقدين استقلالك وتضطرين لاطاعته .

- أظنك تبالغين يا آنسة دل كويروس .

احتجت فانيسا بشدة ثم قالت :

- لن أبقى هنا الا لفترة قصيرة ولا أنوي تلقّي الأوامر من الدون رفاييل . انا ضيفته لا مستخدمته

- كم انت فخورة بنفسك . ربما لو كنت مستخدمة الدون رفاييل لكان ذلك أفضل .

- ربما .

اجابت فانيسا باختصار وأخذت تفكر بامكانية ايجاد عمل في الجزيرة . سرحت بأفكارها وهي تحدق في البحر وانعكاسات أشعة الشمس المتكسرة فوق امواجه . غير بعيد عنها كان يقف الرجل الذي أحضرها الى هنا . هو الآخر كان يحدق بالأمواج المتكسرة على الشاطىء الرملي . بم تراه يفكر ؟ بان البحر قاسٍ وجميل . . . كالحب .

استدار فجأة ومشى باتجاه فانيسا وباربرا . كم يوحي بالقوة

وزخم الحياة . . . هذا الرجل . هنا في لويندا يصبح شخصاً آخر ، مختلفاً . انه السيد هنا ، لا الضيف الذي كان يعاملها بلطف بارد عندما يزور عمها . . .

٢ - «كيف تريدني ان ادفع ثمن انقاذك حياتي يا دون رفاييل ؟» هذا الاسباني المتعجرف! هل يظن ان بامكانه التحكم في حياتها؟ تفضل اي شيء على ان تشعر بأنها أسيرة. . .

استرخت فانيسا في المقعد الفخم في سيارة الرولز الفضية . كانت السيارة تعبر بوابة ضخمة يحيط بها صفّان من الاشجار الرائعة المحملة بزهور حمراء بلون اللهب.

ـ كل شيء هنا رائع . . . رائع حقاً يا سيدي! هل المكان حقيقة ام تراني أحلم؟

اندفعت فانيسا تقول ذلك بحماس طفل يرى الاشياء لأول مرة.

ـ هل تتمنّين يا آنسة لو كنت أنا والجزيرة حلماً واقعاً هيا . . . كوني صريحة معي . حاولي .

قال ذلك بأسلوب تهكّمي عرفته فانيسا جيّداً أيام كان يزور عمها في اورداز. نظرت اليه لتراه يبتسم ويعيد قوله:

www.elromancia.com

- هيا... كوني صريحة.

بانفعال كبير قالت فانيسا:

- انت تظن يا سيدي ان بامكانك اظهار كرمك امامي لأنك تملك قلعة ونصف جزيرة بينما لا املك انا شيئاً في الوقت الحاضر. ان كنت حقاً كريماً يا دون رفاييل فستجد لي عملاً على الجزيرة.

- هكذا اذن؟ وبهذه السرعة؟ حسناً، ما نوع العمل الذي تفضلين يا آنسة كارول؟ قطف القطن ام الفاكهة؟ او ربّما تفضلين العمل في مصانع العطور؟

اندفع الدم حاراً الى وجه فانيسا امام الاحتقار الذي رأته في عينيه. وعضت على شفتها... رباه، لا بد انه يجدها ناكرة للجميل. عرّض حياته للخطر ليلة امس لانقاذها، وها هو يأخذها الى بيته وليس لديها سوى التذمّر تقابله به...

قال الدون بسخرية ونفاد صبر:

- يعجبني عدم الاتكال على الغير يا آنسة كارول، لكنك تبالغين في ذلك الى درجة لا تطاق. ثم اضاف:

- انا متأكد ان كل النساء الانكليزيات لا يرفضن المساعدة وقت الحاجة. ويحزنني جداً موقفك مني، ويقيني ان السبب في هذا الموقف يعود الى كوني أجنبياً. لو كنت انكليزياً لقبلت مساعدتي شاكرة. الهذه الدرجة تكرهينني يا آنسة؟ حسناً، لن يطول بك الامر فعندما تعرف السلطات بالحادث ستقوم بالتعويض عليك.

قالت فانيسا بانفعال:

- انا... انا استطيع الاتصال بالقنصل البريطاني.

- بالطبع. لكن اعلمي شيئاً يا آنستي العزيزة. قلت لك ان بيتي بيتك. ارفضي ضيافتي ولن أغفر لك الاهانة ابداً.

ألقت عليه فانيسا نظرة جانبية ورأت الجد كل الجد على وجهه. ما أصعب التعامل مع هذا الرجل! لو كان جاك كونروي هو الذي أنقذها من اورداز، لكان الأمر انتهى بكلمة شكر بسيطة وسريعة. لكن هذا الرجل الاسباني دون رفاييل دو دوميريك يعتبر الأمر متعلقاً بشرفه ويشعر بالمسؤولية تجاهها. تبّاً للعادات الاقطاعية الاسبانية!

في هذه الاثناء كانت السيارة قد وصلت بهما الى ساحة واسعة امام القصر. توقفت ونزل السائق مسرعاً ليفتح الباب للدون وضيفته اللذين اخذا يصعدان درجات حجرية نصف دائرية وقفت فانيسا في أعلاها ونظرت الى الوراء مبهورة ومأخوذة الحواس بجمال المنظر. الجزيرة تحت أقدام القصر! انتبه الدون وقال ضاحكاً:

- يظهر ان أول دون رفاييل جاء الى هنا كان يحب ان ينظر اليه الناس من تحت.

في تلك اللحظة فتح رجل يلبس زياً رسمياً باب القلعة الضخم ليدخل منه سيد القلعة وضيفته. ارض القاعة الكبيرة كانت من الموزاييك. في الوسط درج عريض ارتقاه الدون وهو يحيط كتفي فانيسا بذراعه اخذاً اياها الى قاعة اخرى. كان المكان رائع الجمال، مزيناً ومزخرفاً بالتماثيل وخشب الماهوغاني المحفور. شخصان كانا يجلسان في الداخل، رجل وامرأة. الرجل يقرأ جريدة والمرأة تجلس قرب النافذة. كانت تلبس ثوباً ضيقاً ومن خصر ثوبها ينسدل ذيل طويل مزين بأزرار ذهبية.

- اخيراً عدت يا رفاييل؟

قالت المرأة مادة يدها النحيلة ومتطلعة الى الدون بعد ان قاست بنظراتها فانيسا من رأسها الى قدميها... ردّ عليها الدون بابتسامة جذابة سارحاً بنظره في عينيها البنيتين وشعرها الجميل الذي كان

يحيط بعنق أبيض ووجه مرفوع الى الدون.

عاتبته المرأة بغنج قائلة:

ـ رفاييل، شغلت بالنا. لم ذهبت وحدك الى اورداز؟

ـ رجل واحد يعرف تماماً ما يريد، أسرع من جيش بكامله يا عزيزتي لوسيا.

قال هذا ثم رفع يدها وطبع عليها قبلة خفيفة. لاحظت فانيسا خاتم الزواج في اصبعها الى جانب خواتم الماس اخرى. لا بد ان تكون هي السيدة لوسيا مونتيز الأرملة الشابة التي اتى الدون على ذكرها امام عمها في احدى زياراته. زوجها الذي كان يكبرها بكثير توفي منذ عام.

كان الدون يتطلع الى هذه المرأة وكأنهما الوحيدان على الجزيرة، وبتردّد رآه الجميع ترك الدون يدها مبتسماً ثم قال:

ـ يسعدني كثيراً يا لوسيا اهتمامك وانشغالك بأمر غيابي. انا متأكد انك ستغفرين ذهابي المفاجيء من الحفلة امس وامتناعي عن ذكر الاسباب. تركت مع سكرتيرتي امراً بعدم اشاعة النبأ حتى صباح هذا اليوم ساعة أكون في طريق العودة.

ـ لا بأس يا رافاييل ما دمت قد عدت الى القلعة سالماً. كلنا لاحظنا مدى اهتمامك بما قد يحصل لصديقك السيد كارول وقريبته الشابة في اليومين الأخيرين.

قالت هذا وابتسمت لفانيسا ثم اضافت:

ـ لكن اين السيد كارول؟

نظر الدون باهتمام الى فانيسا ثم اخذ يكلم السيدة باللغة الاسبانية شارحاً لها ما جرى. ظهر الاهتمام على وجه السيدة مونتيز كما وقف الرجل الشاب الذي كان يقرأ الجريدة واخذ يتطلع الى

فانيسا باهتمام. ربما كان في أواخر العشرينات أي اصغر من الدون بسنوات عديدة.

قال موجهاً كلامه باللغة الانكليزية الى فانيسا:

ـ انا آسف جداً لما حصل يا آنسة كارول.

شكرته فانيسا قائلة لنفسها انه يبدو أقل تعقيداً من الدون ويمكن التحدث معه براحة اكثر. عندها قام الدون بتعريف فانيسا رسمياً الى الشاب الاسباني راي الفاداس والى السيدة مونتيز.

اخذت فانيسا تجيب على اسئلة السيدة لوسيا الكثيرة... هكذا اذن، فقدت المسكينة كل شيء! كم كان حظها كبيراً ان وصل الدون رفاييل في الوقت المناسب لانقاذها من اورداز!

ثم استدارت السيدة مونتيز الى الدون ونظرت اليه بطريقة تجعل من اقوى رجل عبداً لعينيها الداكنتين وقالت:

ـ أنت بطل يا رفاييل.

ابتسم لها الدون قائلاً:

ـ انك تبالغين يا عزيزتي. الحظ يلعب دوره في هذه الأمور ثم هناك شجاعة الآنسة كارول والتي ساعدت كثيراً.

سألت الارملة ببطء:

ـ هل زرت لويندا من قبل يا آنسة كارول؟

ـ لا. سمعت عنها كثيراً، بالطبع، من الدون رفاييل عندما كان يزور عمي.

وبينما كان الدون يشرح للسيدة العلاقة التي كانت تربطه بعم فانيسا، وواجبه تجاهها بعد ان فقدت عمها وبيتها، كانت هي تتفحص بفضول منظر فانيسا وثيابها. وبعد ان أكمل الدون كلامه قالت السيدة لفانيسا كلمات مدروسة:

ـ ان احتجت اي شيء يا عزيزتي، لا تتردّدي بالقدوم الي.

ـ هذا لطف منك.

اجابتها فانيسا وهي رافضة، بينها وبين نفسها، فكرة قبول اي احسان من هذه المرأة. وعرضها لم يكن عفوياً ابداً.

في تلك اللحظة سمعوا طرقة خفيفة على الباب الذي فتح ووقفت على عتبته امرأة نحيفة في منتصف العمر تلبس ثوباً اسود. قام الدون من مكانه وذهب يكلم المرأة ثم عاد الى جانب فانيسا وقال:

ـ شقتك اصبحت جاهزة الآن يا آنسة كارول. اظنك متعبة وترغبين في الانفراد.

فانيسا التي كانت تتوق ان تكون وحدها أجابته بلهفة:

ـ نعم، أرجوك.

وقف راي الفاداس عندما وقفت فانيسا وابتسم لها قائلاً:

ـ آمل ان اراك فيما بعد يا آنسة.

كانت ترد ابتسامته بمثلها عندما لمحت تقطيبة على وجه الدون. يظهر ان ما قاله لها قريبه لم يعجبه.

ـ كونسيبسيون ستعطيك كل ما تحتاجين يا آنسة كارول. بامكانك البقاء في غرفتك ما شئت. سيؤخذ طعام الغداء اليك. لا حاجة بك الى النزول.

ـ انتِ لطيف جداً يا سيدي.

قالت فانيسا ذلك بصدق. فبرغم كل ما يوحي به مظهر هذا الرجل من قسوة، تكمن في داخله طيبة ولطف حقيقيان.

ـ هيا يا عزيزتي، حاولي ان تستريحي وتذكري انه طالما نحتفظ بذكريات طيبة عمن نحب، كانوا احياء في داخلنا. الى اللقاء.

كانت الغرفة واسعة وذات سقف عالٍ والسرير الجميل ترتفع من

اطرافه أعمدة عالية تنسدل فوقها ناموسية.

وفي الحمام كانت رائحة الورد تتصاعد مع بخار الماء الذي يملأ المغطس. شكرت فانيسا المرأة التي رافقتها الى غرفتها قائلة ان لديها كل ما تحتاج اليه.

أحست بالراحة عند خروج المرأة. أخيراً وجدت نفسها بمفردها. خلعت ثيابها الممزقة وألقت بنفسها في الماء الساخن وأغمضت عينيها. أحست بكل تعبها يتلاشى في دفء الماء المعطر. ثم قامت لتجد عباءة من الحرير لفّت بها جسمها ومشطت شعرها ثم عادت الى غرفة النوم الجميلة.

كم بدت اورداز بعيدة... ملايين الاميال، لكن الحزن في قلبها ما زال كقبضة حديدية. عمّها الكهل الحنون الذي كان لها أباً وأماً، مات. يا الله! وقامت فانيسا من مكانها الى الشرفة. اتكأت على حافتها. وحدقت بعيداً بعيداً... في الأفق. لماذا لم تسمع كلام الدون؟ لمَ لم تقنع عمها بترك اورداز؟ ربما كانت أنقذت حياته. لكن مزرعته وبيته كانا حياته كلها. لو أُجبر على تركها وترك كتبه التي كان يحبها، والبيانو وكل الأشياء لما تحمّل قلبه الحنون...

تنهدت فانيسا وأرخت قبضتها عن حافة الشرفة. صوت اجراس قادمة من البلدة كانت كأنها تقول ان كل شيء مقدّر! دخلت الغرفة وأغلقت النوافذ. يجب ان تستريح لتستعيد بعض حيويتها. استلقت على السرير وبدأت تفكر بالاشخاص الذين يسكنون القلعة... الدون، لوسيا مونتيز، باربرا... وعندها فتح الباب وأطل رأس باربرا ديل كويروس.

ـ حسناً. لست نائمة!

ودخلت حاملة بعض الثياب ثم ألقت بها على السرير.

ـ شكراً لك يا آنسة دل كويروس.

قالت فانيسا ذلك باسمة رغم شعورها بالانقباض. طبيعتها الاستقلالية تكره الاعتماد على الغير مهما كانوا لطفاء.

ـ بالطبع، هذه الاشياء مؤقتة. الكومبادر سيرتّب الأمر فتشترين كل ما تحتاجين اليه...

توقفت باربرا عن الكلام عندما رأت اللون الاحمر يندفع الى وجنتي فانيسا. ثم اكملت:

ـ سيصرّ على ذلك. غريب ان لا تحبي هذا الرجل. نساء كثيرات يتبعنه كظله. الا تجدينه مثيراً للاهتمام؟

ـ فقط أفضّل... أفضّل ان احافظ على استقلاليتي.

ـ لا ينسجم ذلك مع وجودك في ضيافة الكومبادر. دعيني أخبرك هذا. انه رجل اسباني حقيقي. وكمعظم رجالنا، يظن ان المرأة مخلوق هشّ وحساس. كالزهرة تماماً. نساؤنا يعرفن ان ذلك غير صحيح، لكنهن يظهرن عكس ذلك للحفاظ على اهتمام الرجل ورعايته. هل كان لك خطيب في أورداز؟

ـ كنت مكتفية بصحبة عمّي.

ـ لكن سيأتي اليوم الذي تريدين فيه الزواج، طبعاً؟ انا اريد ذلك واريد ان انجب اطفالاً ايضاً.

ابتسمت لها فانيسا واخذت ترتب الثياب التي احضرتها باربرا وتضعها في الخزانة. بساطة وصراحة هؤلاء الناس تفاجئها، فقد احمر وجهها مرة ثانية عندما قالت باربرا انها جميلة جداً بشعرها الأحمر وجلدها ابيض كالزبدة. لكنها استطاعت ان تقول:

ـ كنت محقّة لو كنت تتحدثين عن السيدة مونتيز، أما انا!

ـ هه! كل ذلك طلاء. كم اتمنّى لو ارى وجهها وهي خارجة من

الحمام مباشرة. فانيسا، هل تجدينني جميلة؟

ـ طبعاً، أليس لديك مرآة في غرفتك لترى ذلك؟

قالت فانيسا مبتسمة ثم اضافت:

ـ ربما كان هذا هو السبب الذي يريدك الدون من اجله ان تحومي في الجزيرة على فرسك، مثل صبي تماماً.

ـ لم أكن اجرؤ على فعل ذلك من قبل. لكن مرافقتي تركت العمل معنا وانا الآن حرّة في تجوالي. الدون طبعاً يريدني ان اتصرّف كسيدة، وانا اكيدة انه سيجد لي مرافقة اخرى عن قريب.

انه حقاً رجل ذو سطوة، هذا الدون رفاييل. رجل يأخذ مسؤولياته بجدّية جديرة بالاحترام. وأخذت فانيسا تتخيل السيدة مونتيز معه. يظهر ان باربرا لا تحب تلك المرأة. لكنها صغيرة ولا تعرف ما تمثله امرأة مثلها بالنسبة الى رجل مثل الدون.

لاحظت باربرا شرود فانيسا وقالت بلطف:

ـ بماذا تفكرين يا فانيسا؟ ذكريات أورداز تلاحقك؟ سأتركك تستريحين قليلاً والا غضب مني الكومبادر. أراك فيما بعد.

ثم خرجت واغلقت الباب خلفها. ارتمت فانيسا على السرير واغرقت رأسها في وسائد الحرير الناعمة. عادت الذكريات تعصر قلبها. عمّها، بيتها، اورداز والحالة التي آلت اليها حياتها. أتعبتها فوضى افكارها واستغرقت في نوم عميق.

استفاقت بعد بضع ساعات على صوت الباب يفتح ورأت كونسيبسيون تدخل حاملة صينية ملأى بالطعام والقهوة. جلست فانيسا في السرير لتجد نفسها محاطة بالناموسية.

ـ هل نمت جيداً يا آنسة كارول؟

ـ نعم. شكراً. وشكراً لأنك أسدلت الناموسية اثناء نومي.

نسيت ان افعل ذلك.

وضعت كونسيبسيون الصينية على الطاولة ونظرت الى فانيسا بوحشة ثم قالت:

ـ لم ادخل غرفتك منذ ان تركتك في الصباح يا آنسة. ربما كانت الأنسة دل كويروس هي التي فعلت ذلك.

ثم استدارت وخرجت مسرعة خوفاً من ان تزعج ضيفة الكومبادر. يهتمون بضيوفهم كثيراً في هذا المكان. ورغم ذلك لم تكن فانيسا مرتاحة. لم تكن معتادة على الانصياع لرغبة أحد. في بيتها الجميل كانت سيدة نفسها، وعمّها كان سهل الانقياد.

سكبت فنجاناً من القهوة وأخذت ترشفه ببطء. لم تكن تشعر بالجوع. وضعت الطعام جانباً واستغرقت في افكارها. لم تسمع الطرقة الخفيفة على الباب ولم تشعر بأحدهم يفتحه ويدخل. أحست فانيسا بالرجفة عندما سمعت صوتاً عميقاً خافتاً يقول:

ـ اخبرتني كونسيبسيون انك نمت جيداً وطويلاً يا آنسة كارول.

كان الدون يقف قرب الباب واضعاً يديه في جيوب عباءة.

ـ نعم شكراً.

اجابته بتهذيب فتاة المدرسة المرتبكة. اقترب الدون من السرير وألقى نظرة سريعة على الطعام الذي لم تمسه. قالت فانيسا معتذرة:

ـ لم... لم استطع ان آكل.

أجابها الدون بمرح:

ـ لا بأس. هل تعجبك الغرفة يا آنسة كارول؟

ـ انها جميلة جداً.

وحاولت لملمة أطراف عباءتها فوق صدرها بحياء بعثه فيها منظر الرجل بقامته المديدة. الرجل الذي لا تظن انه يراها كامرأة بل كفتاة صغيرة.

لاحظ الدون احمرار وجه فانيسا وتجاهله قائلاً:

ـ كانت هذه غرفة والدتي. انها من أجمل غرف القلعة. ربما كنت تفضلين غرفة عصرية أكثر.

ـ لا ابداً. انها منسجمة مع جو القلعة.

اجابته مبتسمة فقد رقّ وجهه عند ذكر والدته.

قال بمرح وعيناه على فانيسا طيلة الوقت:

ـ لكن السرير ضخم ويخيف قليلاً. هل سمعت قصة الأميرة وحبة الحمص تحت السبع فرشات؟ أذكر اني قرأتها عندما كنت صغيراً واذكر الصورة المرافقة ايضاً. تشبه الطريقة التي تجلسين فيها على حافة السرير.

ضحك الدون وابتسمت فانيسا التي فهمت قصده. يحاول ان يقول لها ان لا تشد أعصابها في حضوره بهذا الشكل. وان ترتاح.

ـ لا أدري لماذا تنقبضين هكذا وتشعرين بالحرج في حضوري! ربما تفكرين انه لو كان كونروي هو الذي أنقذك من اورداز، لانقضى الأمر بسهولة. كلمة شكر وينتهي كل شيء. لا يا عزيزتي، الشهامة والفروسية صفتان نادرتان هذه الأيام.

دائماً يعود الى ذكر كونروي. هذا الاسباني المتعجرف! هل يظن ان بامكانه التحكم في حياتها؟ لمعت عيناها الخضراوان بغضب واندفعت تقول:

ـ كيف تريدني ان أدفع ثمن انقاذك حياتي يا دون رفاييل؟

بالطريقة التي تظن ان الرجل الانكليزي يتوقعها؟

ساد صمت ثقيل في الغرفة الجميلة. وفجأة انحنى دون رفاييل فوق فانيسا مركزاً نظره على عينيها مسمراً اياها كفراشة... ارتجفت الفتاة في داخلها مخافة ان يعرف هذا الرجل مدى الخوف الذي يملأ قلبها.

اخيراً كسر الدون هذا الصمت الثقيل قائلاً:

ـ انت تخدعين نفسك يا آنسة كارول. ما قد يعجب شبلاً صغيراً مثل كونروي قد لا يعجب رجلاً مثلي صقلته التجارب. بالنسبة الي، أنت ما زلت عوداً أخضر وطرياً يا آنسة.

ثم توقف وعاد الى برودته السابقة مكملاً كلامه:

ـ ما أطلبه منك لقاء انقاذ حياتك، هو ان تبقي في القلعة الى ان يصبح باستطاعتك العودة الى انكلترا. أصرّ على ذلك كصديق لعمك الطيب رحمه الله. من أجله فقط أبقيك هنا. أفهمت؟

ملأ فانيسا شعور بالندم للكلام الذي وجهته اليه. وتمنّت لو يتركها وحدها. سألها ان كانت باربرا أحضرت لها بعض الثياب لتستعملها الى ان تشعر بالقوة الكافية على شراء الثياب بنفسها، فأجابته بصعوبة قائلة:

ـ لا أريد ان استغلّ كرمك يا دون رفاييل. ولا اظنني باقية هنا لمدة طويلة كي...

ـ مهما يكن فأنت بحاجة لثياب خاصة بك. والآن وقد ارتحت قليلاً، ارجو ان تنزلي الى الحديقة لترافقي باربرا. الوحدة لا تلائمك في حالتك الراهنة. افعلي كما اقول يا آنسة.

وأقفل الموضوع تاركاً الغرفة.

ارتجفت فانيسا وكأنها في مهب ريح باردة. ما هذا! أوامر؟ عليها ان تتصل بجاك كونروي بأية طريقة ليمدّها ببعض المال فتنتقل الى فندق. تفضل ان تستدين منه على أن تشعر بأنها أسيرة القلعة الذهبية.

www.elromancia.com

٣ ـ بدأت دهشة فانيسا تتحول الى غضب . باربرا طفلة بريئة لم تخرج الى العالم ، تعيش منقطعة عنه في القلعة . أما هو فقد خبر الحياة بخيرها وشرها . عيناه تقولان ذلك !

في الأيام التي تلت بدأت فانيسا تتغلب على صدمة فقدان عمّها وبيتها . صحبة باربرا ساعدتها كثيراً . باربرا فتاة نشيطة ممتلئة حيوية ، رفقتها ممتعة رغم تصرفاتها الصبيانية احياناً . ما كانت فانيسا لتجد دواء أنجع من رفقة هذه الفتاة .

كانتا تذهبان للسباحة احياناً ، وأحياناً لركوب الخيل على شاطىء البحر أو للتنزه سيراً على الأقدام . كان الدون يلاقيهما بين وقت وآخر . كم كان ركوبه للخيل متقناً . وهو بثيابه الرسمية كان يبدو اكثر وسامة وأصغر سناً .

لكن شيئاً حدث ذات ليلة عكّر صفاء الأيام المقبلة . كان الجميع يتناولون طعام العشاء عندما افتقد الدون باربرا وبحث في طلبها . لم

تكن في القصر . ولم يعرف أحد مكان وجودها . أحست فانيسا بالجو يتكهرب رغم محاولات مونتيز ترطيب الجو .

قريب الدون ، راي الفاداس كان قد ذهب لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في مكان ما . أما جدة الدون فقلّما تتناول العشاء معهم .

نظر الدون الى فانيسا نظرة اتهام . انها وباربرا تقضيان وقتاً طويلاً معاً ، لكن باربرا لا تتكلم عن نفسها كثيراً ولم تكن فانيسا لتعرف أين ذهبت تلك الليلة .

في الصباح التالي وبينما كانت الفتاتان تركبان مهرتيهما على شاطىء البحر ، اقترب الدون من باربرا وسألها أين كانت الليلة الماضية . عند سماع ذلك حاولت فانيسا الابطاء خلفهما . الأمر شخصي ولا يعنيها . مع ذلك كانت تسمع لهجة الدون الغاضبة وهو يعنف الفتاة لخروجها من القصر في الليل دون اذنه . اجوبة باربرا كانت سريعة ومتحدية ورفضت تماماً أن تخبر الدون عن الشخص الذي قضت معه السهرة . بدأ صبر الدون ينفد وصوته يعلو . ثارت ثائرة باربرا على الرجل الذي يريد التحكم في حياتها ، وفجأة رفعت السوط وهوت به على يد الدون التي كانت تمسك بمقود فرسها .

أطلق صرخة ألم خفيفة وأبعد يده . عندها انطلقت باربرا بالفرس بأقصى سرعتها . كانت لحظة صعبة . بحركة عنيفة أدار الدون حصانه وقابل فانيسا وجهاً لوجه .

قال مصراً على أسنانه :

ـ من الحكمة أن لا ألحق تلك الحمقاء الآن .

ثم أردف فجأة :

ـ والآن قولي يا آنسة كارول . هل تعلمين مع من قضت باربرا مساء أمس ؟

ـ ابداً يا سيد .

وعدلت جلستها على ظهر الفرس . ورغم الغضب في عيني الدون وجدت فانيسا الجرأة الكافية للدفاع عن باربرا .

ـ أعتقد ان فتاة في عمر باربرا يحق لها التمتع بالقليل من الحرية . أفهم موقفها منك . فهي ترفض مذلة مرافق لها يراقب تحركاتها طوال النهار والليل . انها ليست طفلة .

ـ هكذا تفكرين اذن يا آنسة كارول . طفلة في عهدتي تتسلل من بيتها في الليل ، طبعاً لملاقاة رجل ، ويجب أن أتركها تفعل ذلك ؟

قالت بانفعال :

ـ لماذا « طبعاً لملاقاة رجل ؟» ربما ذهبت تسبح في ضوء القمر ، أو تمشي ، أو تزور صديقتها .

قال بسخرية :

ـ ربما . لكن اسمحي لي يا آنستي أن أقول لك اني اعرف ابنتي اكثر مما تعرفينها أنت . ولو لم تكن فعلاً قضت الليل بصحبة رجل ، ورجل لا أوافق انا عليه ، لما انفعلت بهذا الشكل .

أصرت فانيسا على الدفاع عنها :

ـ باربرا شابة وجميلة . ومنعها من الاختلاط بالرجال حسب المعتقدات القديمة ، يسبب مشاكل أكثر .

ـ هذه عاداتنا وتقاليدنا يا آنسة كارول . والنتائج أفضل بكثير من مآسي الزواج والطلاق في بلدكم حيث تختار الفتاة زوجها دون موافقة أهلها أو رضاهم . أنت لا توافقين ، يا آنسة ، لكنني أؤمن ان الوالدين هما اخبر الناس بطباع ابنتهما ويعرفان تماماً نوع الرجل الذي يجب أن تتزوج . وأنا متأكد أن قلوب الكثيرين من الآباء والأمهات تحترق في بلدكم لأنه يُحظر عليهم التدخل في هذا الأمر

الأساسي .

كان الدون يتكلم بكل جدية ثم أضاف ببطء :

ـ عمك الطيب أسرّ لي ذات مرة عدم ارتياحه من تطور صداقتك مع جاك كونروي .

شعرت فانيسا بالغضب . كيف يجرؤ هذا الرجل على تضمين كلامه أية ملاحظة سلبية عن أحد اصدقائها ؟ جاك كونروي ليس اكثر من صديق . لم تفكر يوماً بالزواج منه . وان فكرت ما دخل الدون بالأمر ؟

قالت منفعلة :

ـ لم يكن عمي ليسمح لنفسه بالتدخل في حياتي الخاصة . كان باستطاعته أن يفهم ان ما يجلب السعادة للمرأة ، ليس بالضرورة حياة روتينية منظمة .

ـ هكذا اذن ؟ كنت مستعدة لمرافقة كونروي في رحلاته في الأدغال ؟ اظن ذلك يتطلب الكثير من الشجاعة . . . والحب .

قالت دافعة رأسها الى الوراء لازاحة شعرها عن وجهها :

ـ بالطبع ، يا سيد . لن اتزوج شخصاً لا يعني لي العالم كله .

ـ نعم ، أعرف ذلك .

وفجأة امتلأ صوته دفئاً وكأنه قرر أن لا يغضب من انفعالاتها وتابع قائلاً :

ـ أتفتقدين عمك الطيب ، يا آنسة ؟

خفضت فانيسا بصرها وشعرت بالدموع تتراكض في عينيها . حاولت التحكم في عواطفها وقالت بعصبية :

ـ وجودي مع باربرا ساعدني كثيراً . يظهر انها تحتاج الى صحبتي كما احتاج انا الى صحبتها .

ـ آنسة كارول ، حصل وطلبت أن اجد لك عملاً هنا . ما رأيك في أن تصبحي مرافقة باربرا ؟

فوجئت فانيسا وصمتت . ثم ارتجفت عندما أحست اصابعه تلمس كتفها بعد ان اقترب منها كثيراً . أصبح التنفس صعباً . كادت تختنق . فقط لو يبعد يده عن كتفها .

لا بد ان الدون أحس باضطرابها وترك يده تسقط عن كتفها . ابتعدت هي قليلاً وحاولت ضبط اعصابها .

ـ أريحي اعصابك يا آنسة . اعرف انك تنفرين مني . الشعور متبادل . طالما احسست بالنفور منك خلال زياراتي لأورداز . لكن هذه اللحظة ، لا دخل للأمور الشخصية . انا اناقش العمل معك . احسست انك تميلين الى باربرا . هل انا مخطىء ؟

ـ بالطبع ، أميل اليها . لكن لا اظن انني استطيع العمل كشرطي .

تقلصت عضلات وجهه وقال غاضباً :

ـ كم أنت مزعجة . أو تظنين انني سأحافظ على هدوء اعصابي معك فقط لأنك قريبة صديقي ، ليبارد كارول . انت مخطئة ايتها الآنسة النادرة المثيل .

الوحش ! شعرت فانيسا بكراهية بدأت تمتزج بالغضب الذي يأكل صدرها . وبدأت الدموع تتدافع من عينيها . يجب أن تبتعد . لن تدعه يرى دموع الهزيمة على وجهها . استدارت بضع خطوات ثم جمدت مكانها . على بعد بضع سنتيمترات من وجهها وعلى احد اغصان الشجرة الضخمة كان ثعبان كبير مخيف . صرخت بفزع . وبسرعة كانت ذراعا الدون تلتفان حول خصرها وتسحبانها الى الوراء . . . الى صدره القوي الآمن . وضربة واحدة من السوط

الذي كان في يده فصلت رأس الثعبان عن بقيته .

بعد ان التقطت فانيسا انفاسها ، قال الدون مبتسماً :

ـ ارأيت ؟ الاستقلال التام عملية مستحيلة . لقد احتجتني الآن كما احتاجك أنا لمرافقة باربرا . لا لتكوني شرطياً ، بل صديقة .

ابتسمت له فانيسا بارتباك . فجأة اختلطت عليها الأمور ، تباً له ! تارة يثير فيها كل مشاعر الغضب والكره وتارة يمتلىء صوته ووجهه دفئاً وحناناً ، فلا تعود تعرف حقيقة مشاعرها . ورغم اضطرابها استطاعت أن تجيب :

ـ كنت دائماً اظن انك تعتبرني متهوّرة يا دون رفاييل . ألا تظن ان وظيفة مرافقة تتطلب نضجاً وحكمة ؟

ـ لا أتوقع النضج من شابة في عمرك .

أجاب ببطء مركزاً النظر على وجهها الذي بدأ اللون الأحمر يتدافع اليه .

ترى بماذا يفكر ؟ هل يظن ان اخذها هذه المسؤولية يساعد على نضوجها ؟

لكن باشارة سريعة منه ، اشارة الى الشاطىء والبحر والجبال البعيدة ، قال :

ـ هل تجعلك مأساة اورداز تشعرين بالذنب للاستمتاع بكل هذا الجمال ؟ هل من اجل ذلك ترفضين البقاء هنا ؟ استطيع ان افهم ذلك . لكن الوقت . . . الوقت يا عزيزتي كفيل بمحو كل الأحزان .

وبالفعل ، كان الجمال والهدوء هنا في لويندا ساعداها كثيراً في محاولة نسيان مصيبة أورداز . لكن السبب في عدم رغبتها بالبقاء أبعد بكثير من الحزن أو الشعور بالذنب . ما يحملها على الذهاب هو

شعور غريب بأن خطراً ما يكمن لها هنا ، وبأن عليها الفرار قبل ان يتمكن منها .

قال الدون ضاغطاً على يدها :

ـ لا اطلب منك رداً سريعاً . فكري بالأمر . وان كانت لا تزال لديك تحفظات ، سأبحث عن مرافقة اخرى . لكن ، ارجو ان تتذكري ان وجود مرافقة تقاربها في العمر يجعل قبول الأمر أسهل على باربرا . أعني ان شابة في مثل عمرها تشعر مثلها وتعرف ان الشباب ليس ورداً دون أشواك .

قالت فانيسا بانفعال :

ـ مع ذلك فأنت تقسو عليها كثيراً .

ـ أحياناً كثيرة يضطر الانسان أن يقسو لكي يكون لطيفاً فيما بعد .

ثم نظر الى ساعة يده وأضاف :

ـ لديّ ساعة قبل موعدي التالي . ما رأيك بفطور شهي في مكان جميل ؟ ستحبين ذلك ، أعدك .

ـ فطور ؟ لكن الا ينشغل بالهم في القلعة ؟

قال ضاحكاً :

ـ سيد القلعة سيد وقته أيضاً يا آنسة .

سارا على طريق قديمة للعربات محاذية للشاطىء تنتهي عند كرمة كبيرة للعنب ، في وسطها بيت حيطانه مطلية بالكلس الأبيض . وأمامه غسيل منشور يهتز بفعل نسيم البحر ، وامرأة عجوز في ثياب سوداء كانت تجلس امام العتبة تهز سريراً من القصب ينام فيه طفل .

عندما اقتربا من حيث كانت تجلس ، سحبت العجوز الغليون من فمها وتطلعت باتجاههما . وسألت بالاسبانية :

ـ من هناك ؟

عرفت فانيسا من نظرة المرأة العجوز انها عمياء .

أمسك الدون بذراع فانيسا وقادها الى حيث تجلس المرأة . حيّاها بالاسبانية منادياً اياها بماريا . تحدثا قليلاً بالاسبانية واستطاعت فانيسا أن تفهم بعض الأشياء .

قال الدون وهو يبتسم للطفل المستلقي في سريره والذي كان يمصّ اصبع قدمه الصغيرة :

ـ عندك حفيد جميل . يشبه ولدك كثيراً لكن له ابتسامة أمه .

قالت العجوز برضى :

ـ امه زوجة طيبة . حمداً لله . لم يكن ولدي رامون سعيداً هكذا من قبل . الفضل لك يا كومبادر . لولا تلك العملية التي دفعت مصاريفها ، لما استطاعت باكيتا انجاب الطفل . اسميناه رفاييل تيّمناً بك يا سيدي .

ـ لم اكن اعرف . عليّ اذن أن أقدّم له هدية .

وسحب الدون بعض الأوراق النقدية من محفظته واضعاً اياها في يد العجوز وهو يقول :

ـ لا تخبري رامون فهو يعتبر نفسه مديوناً لي بما فيه الكفاية . اشتري للطفل ما قد يحتاجه واتركي الأمر سراً بيني وبينك .

ـ لك قلب كقلب أمك ، كومبادر . حفظك الله !

ولمست ماريا العجوز الأوراق النقدية بشفتيها ثم وضعتها في جيب ثوبها الأسود وهي تحدق بالدون وكأنها ترى أعمق اعماقه ثم قالت :

ـ اشعر ان في الجو شيئاً ثقيلاً يا سيدي . هناك ما يؤلمك قليلاً .

اجابها ضاحكاً :

ـ ماريا ! اتظنين ان بامكانك حملي على تصديق ما تبصّرين ؟

ـ اضحك يا كومبادر ، اضحك مني مثل بقية الرجال ، لكن اعلم ان هاتين العينين تريان اكثر من العيون المبصرة .

ثم تطلعت فجأة باتجاه فانيسا التي كانت تقف بهدوء وتراقب الاثنين وسألت :

ـ هل احضرت سائحة جميلة لترانا يا دون رفاييل ؟

حوّل الدون نظره الى فانيسا التي احمرت ارتباكاً . غريب ! لم يخطر ببالها مرة أن تتساءل ان كان الدون يراها جميلة .

ـ ماريا ! انت تدهشينني حقاً . صحيح ما قلته . معي هنا صبية انكليزية والألم الذي رأيته سببه مأساة حدثت لها منذ اسبوعين . هي الآن تقيم معنا في القلعة .

وغمز بعينيه لفانيسا .

ـ آسفة لما حصل ، يا آنسة . أهلاً بك في كرمنا .

ـ شكراً لك سيدتي .

ووضعت فانيسا يدها في يد العجوز الممدودة نحوها . لكن تلك اليد لم تسلم عليها كما توقعت بل أخذت اصابعها النحيلة تتلمس خطوط كف فانيسا بتركيز . مرّت لحظات صمت ثقيلة ثم هزت العجوز رأسها قائلة :

ـ لا أحد بامكانه اقناع هذه الآنسة بشيء ترفضه .

اضطربت فانيسا وأحست بالرجفة وهي تقف هناك الى جانب دون رفاييل . كم ارادت لو تسحب يدها من يد العجوز ماريا . من يدري ما الذي ستقوله بعد ذلك ! ثم هي لا تفهم كل الكلام الاسباني ، ما عدا كلمة هنا وتعبير هناك . رفعت عينيها الى الدون تريد أن تحتج لكنه قال بلهجة نافذة :

ـ أتريدين أن أترجم لك يا آنسة ؟

ـ لا . . . لا .

ـ بلى . سأفعل . اسمعي . انه بالفعل ممتع . تقول ان لديك طاقة كبيرة على الحب . وانك لن تعطيه من تلقاء نفسك . وتقول ان خط الحياة عندك طويل ويخبىء لك ثلاثة حوادث تحمل سعادة كبيرة . احدى هذه الحوادث ، كما تقول ماريا ، تلوح في الجو الآن . . .

فانيسا تعرف ان ذلك صحيح وتشعر بأن لديها الكثير من الحب والفرح والعطاء . تعرف ان كل هذا يختمر في داخلها وينتظر لحظة الحدث الكبير . وفجأة أحست بالرغبة في اخفاء مشاعرها عن الرجل الواقف الى جانبها . الرجل الذي كان يسخر من كل الأشياء . لم تجد سوى الطفل في سريره تختفي في الانشغال به ما شغل أفكارها . ركعت على العشب وأخذت تلاعب الصغير وتكلمه .

في تلك الأثناء ظهرت امرأة سمينة تلبس قميصاً من القطن الأبيض وتنورة سوداء . حلقات ذهبية في أذنيها تهتز على وقع خطواتها وهي مقبلة نحوهم . حيّاها الدون منادياً اياها باكينا . ثم عرّفها على كارول وأخبرها عن رغبتها في تناول الفطور في الحديقة . رمقت المرأة فانيسا بفضول وأخذتها الى الحديقة الخلفية ثم ذهبت لاحضار الطعام الذي طلبه الدون .

تحدثا طويلاً . تحدثا عن أشياء كثيرة . . . عن أسفاره العديدة ، عن الأماكن الجميلة التي زارها في البرتغال واليونان وغيرهما لكنه كما قال لفانيسا ، لا يستطيع العيش بعيداً عن لويندا . انها الوطن الحقيقي بأناسه الطيبين القانعين .

وافقته فانيسا على ذلك ، فذكرى ما فعل أهل اورداز ببيتها ما

زالت قوية ، بينما هنا في لويندا ، لاحظت الرابطة القوية التي تجمع بين الدون ومستخدميه .

كان يجلس مسترخياً في مقعد مقابل لمقعدها . نظرت فانيسا اليه طويلاً وأخذت تفكر بمن قد تصبح زوجته . ترى هل سيتزوج امرأة مثل لوسيا مونتيز ؟ أم تراه سيفضل فتاة جميلة وبسيطة تنجب له عدة أولاد ليحملوا اسم عائلة الدوميريك ؟

هل تراه غارقاً في حب تلك الأرملة الفاتنة ؟ انها تناسبه وبامكانها ان تكون نجمة اجتماعية بالاضافة الى ذوقها الجميل في اختيار الثياب الفخمة .

هل تراه يخطط للزواج منها قريباً ؟ أمن اجل ذلك يريدها أن تصبح مرافقة باربرا ؟ ليضمن انها في مأمن عندما يذهب في رحلة شهر العسل ؟

همس فجأة :

ـ بماذا تفكرين يا آنسة كارول ؟ أبما قالته العجوز ماريا ؟

هزت رأسها بالنفي وأخذت تعبث بزهرة سقطت على الطاولة .

ـ أتؤمنين بقراءة الكف ؟

سألته متحدية ومبتسمة لتخفي عنه انها حقاً تؤمن :

ـ وأنت يا سيد ؟ اتؤمن بذلك ؟

ـ اريد ان اصنع قدري بنفسي رغم كل قوى الظلام .

قال هذا ضاحكاً ثم وقف ماداً يده ليساعدها على الوقوف . وقفت بجانبه تحت شجرة النخيل الكبيرة . وثانية أحست بتوتره . . . بانه يحاول جاهداً اخفاء شيء قد يفلت منه . قالت لتكسر الصمت :

ـ أعدك بالتفكير جدياً بالوظيفة التي عرضتها علي يا سيد .

ـ شكراً . اكون شاكراً ان عرفت قرارك في اليومين المقبلين .

ـ بالطبع .

لم تكن فانيسا معتادة على النوم بعد الظهر . كانت في هذه الأثناء ، وبينما تذهب باربرا الى غرفتها لتستريح قليلاً ، كانت تتجول في القلعة . كثيرة هي الأشياء القديمة الجميلة التي كانت تكتشفها وتتمتع بها . بعد ظهر هذا اليوم بالذات قادتها رجلاها الى سلم لولبي . صعدت فانيسا السلم لتجد نفسها امام باب فتحته ووقفت مبهوتة . يا الله ما اجمل هذا المنظر ! كان الباب يفتح على سطح صغير يطل على المحيط الواسع . وقفت فانيسا بهدوء كمن يصلي في قلبه . خافت ان هي تحركت ان يختفي كل ذلك السحر .

وبينما كانت تحدق بالنظر غير مصدقة ، سمعت حركة . استدارت بسرعة وتطلعت حولها . لم تر شيئاً . لكنها اكتشفت ان الباب الذي خرجت منه يقود الى مكان آخر ملاصق للسطح الذي تقف عليه ، رباه ! هل تراها دخيلة على مكان لقاء عاشقين ؟ وارتجفت للفكرة واحتمال مواجهة مع الدون ولوسيا مونتيز .

كانت تتجه الى الباب لتعود الى الدرج اللولبي عندما سمعت صوتاً نسائياً خلفها يقول :

ـ انت يا فانيسا .

استدارت لترى باربرا دل كوبروس تقف هناك بوجهها الجميل ، وثوب حريري أبيض . بحركة دراماتيكية كانت تضع يدها على صدرها .

ـ شكراً لله . كنا نتصور شخصاً آخر . . . تعرفين من أقصد!

ثم ضحكت بارتياح ونادت الشخص الآخر أن يخرج فهما في أمان كما قالت له .

كانت مفاجأة فانيسا كبيرة . راي الفاداس ، قريب الدون ؟ نظر الى فانيسا بابتسامة . مد يده وصافحها محنياً رأسه . وقال بصوت خفيض :

ـ المنظر من هنا رائع . انت ايضاً أخذت به مثلنا ، باربرا وأنا ؟

بدأت دهشة فانيسا تتحول الى غضب ، انه اكبر من باربرا بكثير . هي طفلة بريئة لم تخرج الى العالم . تعيش منقطعة عنه في القلعة . اما هو فالأمر واضح . رجل عرف العالم بخيره وشره . عيناه تقولان ذلك . ترى لو عرف الدون ان الشخص الذي تقابله باربرا من وراء ظهره هو راي ! راي قريبه الذي يبقونه في القلعة فقط لأنه ابن خالة الدون !

غضبت فانيسا من كذبه . كان اذن يتمتع بجمال المنظر مع باربرا ! الآن عرفت فانيسا حقيقة خوف الدون كولي أمر باربرا . . . خوفه عليها وعلى براءتها من ذئاب مثل راي . تطلعت فانيسا الى باربرا التي اندفع اللون الأحمر الى وجهها بينما كانت عينا راي تغوصان في ملامحها الفتية . انها غارقة في حبه حتى أذنيها .

كم كانت فانيسا تتمنى لو تتصل بجاك كونروي ليخلصها من هذا المكان ! لكنها أحست بالقدر يطبق عليها ، وعرفت انها عوضاً عن الرحيل ستطلب موعداً لمقابلة الدون رفاييل .

٤ ـ كان هناك جو من الدفء يحيط بهذا الرجل جعل فانيسا تشعر بالراحة . قال لها فجأة : « انا ذئب يا عزيزتي . تصوّري مهمة ترويضي ! »

كان العشاء في القلعة يقدم في ساعة متأخرة عادة . وبينما كانت فانيسا تنزل الدرج في طريقها الى غرفة الطعام التقت بالدون قادماً من جناحه . سارا جنباً الى جنب . وأخبرها الدون انه سيراها في مكتبه في العاشرة والربع أي بعد العشاء . شكرته على اعطائها موعداً سريعاً .

وكان على وشك طرح السؤال عليها عندما قوطع بنزول باربرا في ثوب من الشيفون الأبيض المطعّم بالأسود . وقفت باربرا في منتصف الدرج ونظرتها تنتقل من الدون الى فانيسا وكأنها تقول « ما الذي تتحدثان عنه ؟ »

فهمت فانيسا خوف باربرا . لم ترسل لها بأية اشارة لتريح قلبها .

www.elromancia.com

دعها تخاف . هي ليست طفلة وعليها أن تعرف ان آخر شخص في الدنيا يريد الدون أن تقيم علاقة معه ، هو راي الفاداس .

كان العشاء عادياً رغم الاضطراب الذي كان بادياً على باربرا ، ورغم نظرات الرجاء التي كانت تبعث بها الى فانيسا . بالطبع لن تخبر الدون عن اكتشافها للعلاقة بين باربرا وراي . الأسباب عديدة . أولاً معرفتها لطباع الدون الشرسة . ثانياً خوفها من عمل طائش تقوم به باربرا . . . كأن تهرب مع راي إن قرر الدون ابعاده عن القلعة . وهناك سبب أكثر أهمية وهو خوف فانيسا على العلاقة الحميمة الدافئة التي تربط باربرا بوليّ أمرها الدون .

لوسيا كانت تجلس الى جوار دون رفاييل تشغله بحديثها الممتع وحركاتها المليئة بغنج الأنوثة . راي كان الى جانب فانيسا يتبادل نظرات الهيام مع باربرا الجالسة قبالته والتي كانت تحمر وتصفر خوفاً من انكشاف امرها .

مع انشغال الجميع استرقت فانيسا نظرة جانبية الى الدون . وجهه القوي كأنه منحوت من الصخر . « كوجه نسر » ، قالت لنفسها . ثم تذكرت كيف طار اليها في محنتها واختطفها من براثن الموت الى وكره . . . كالنسر تماماً ! شيء لا يصدق ! أيكون هذا الرجل في ثياب العشاء الرسمية هو نفسه الذي تناولت معه الفطور ؟ كان يلبس ثياباً عادية . كان يكلمها بحماس طفل عن أسفاره ومغامراته . كان يلاعب الطفل بكل حنان ورقة . ويجلس في كرسيه بكسل يراقب العصافير تطير ويضحك بشقاوة من ماريا العجوز وهي تقرأ كفها !

انتهى العشاء . وكما كانت العادة انتقل الجميع الى الصالة لتناول القهوة . كانت الليلة دافئة . انسحبت فانيسا الى الحديقة تمشي قليلاً

قبل أن يحين الموعد في مكتب الدون .

سارت في ممر تحيط به أشجار الياسمين واستغرقت في أفكارها . غريب أمر هذا الرجل . عندما كان يزور عمها في أورداز كانت تظنه بارداً وقاسياً . كانت تعتبره رجلاً بلا هموم ولا مشاعر انسانية ، ساخراً ومتهكماً . وها هي تكتشف العكس ، هنا في بيته . تكتشف انه رجل يهتم بعائلة فقيرة لا طفل لها . يدفع تكاليف عملية ضخمة تمكن هذه العائلة من انجاب طفل جميل . انه انسان . . . انسان له مشاكله وأحاسيسه المرهفة !

اضطربت فانيسا لتلك الأفكار . أحست بقلبها يخبط في صدرها كالطفل وكأن احداً لمسها . أقشعر جسمها وقامت تركض في ممر الياسمين . . . نحو الباب .

دخلت الصالة ومنها اتجهت نحو باب مكتبة الدون . طرقة خفيفة على الباب وكانت وجهاً لوجه مع الدون . تنحّى الرجل جانباً ودخلت . وقع نظرها على لوحة كبيرة لأم مع طفلها ووقفت مأخوذة .

ـ تحبين هذه اللوحة اكثر من التي شاهدتها في صالة العرض ؟

تذكرت فانيسا يوم أخذها لمشاهدة الصور الفنية في صالته الكبيرة . وتذكرت كيف ارتجفت امام لوحة ضخمة تمثل رجال محاكم التفتيش الاسبانية . وتذكرت صور الضحايا البشعة واندفاعها في القول :

ـ لو كانت هذه اللوحة ملكي لألقيتها في الخارج .

ضحك حينئذ وتساءل كيف يلقي بلوحة تقدّر بالملايين . عرفت تلك اللحظة ان هذا الرجل الذي لم تستطع يوماً ان تتخطى حاجز البرودة والنفور القائم بينها وبينه ، يختلف عنها تماماً . أحاسيسه لا

تمت الى أحاسيسها بصلة . لن يكونا صديقين أبداً كما كانت هي وجاك كونروي .

قال مركزاً نظره عليها :

ـ حققت لك طلبك بمقابلتي يا آنسة كارول . أتوقع أن تكون المقابلة حول العرض الذي قدمته لك هذا الصباح .

ـ نعم .

ونظر اليها بتأمل وهو يقول :

ـ تفضلي بالجلوس . ما الذي تخفينه يا آنسة ؟ ولم لا تنظرين اليّ مباشرة ؟ هل لأن ما لديك لن يروق لي ؟

ومع انه كان يتكلم بلطف الا ان فانيسا أحست بالتهديد في لهجته. أتراه لاحظ نظرات باربرا المستغيثة على طاولة العشاء ، أم تراه لاحظ نظرات الوله بينها وبين قريبه راي ؟ لا يمكن ان يكون رأى شيئاً من ذلك . كان اهتمامه كله منصباً على تلك الأرملة لوسيا !

قالت ببرود :

ـ جئت اخبرك يا سيدي انني أقبل عرضك .

ـ هكذا ، اذن ! هذا أمر مثير . ظننتك غير متحمسة للموضوع في الصباح . ما الذي جعلك تغيرين رأيك يا آنسة كارول ؟

ـ انت نفسك قلت ، يا سيدي ، ان طبيعتي الاستقلالية . . .

قاطعها بنظراته الحادة قائلاً :

ـ لا تعطيني اجابات مراوغة يا آنسة ! هيا . . . كوني صادقة معي . لماذا تريدين البقاء ؟ أمن أجل باربرا ام من اجلك انت ؟

رددت كلماته ببطء :

ـ لماذا اريد البقاء ؟ وهل لي الخيار في البقاء أو الرحيل يا دون رفاييل ؟

ـ حتى الآن لم تقم السلطات بدفع التعويض عن بيتك . لكن بما انني أرى تحرّقك للعودة الى انكلترا ، فأنا مستعد لتسليفك بعض المال .

مرت لحظات صمت ثقيلة . أحست فانيسا بالدم يتصاعد الى وجهها . لمَ لم يعرض ذلك منذ اسبوعين ؟ لم أصر عليها أن تبقى في بيته كل تلك المدة ؟ الآن فقط وبكل برودة يقدم عرضه . تحرقها للعودة ؟ وراقبته يشعل سيكاراً فخماً وينفث دخانه في جو الغرفة ببطء . عندما فقدت عمها وبيتها شعرت ان الشيء الطبيعي كان عودتها السريعة الى انكلترا . لكنها الآن ترى الأمور بوضوح اكثر . منذ اربع سنوات قدمت الى هذه المناطق البدائية . اصبحت لها جذور هنا . لن تقبل النمو بسهولة ان هي اقتلعت من الأرض الدافئة لتزرع في أرض باردة معتمة ، ثم لا تستطيع تصوّر العودة الى حياة المدينة السريعة المزعجة ، ومن بقي لها في انكلترا ؟

ـ أليس لديك رد على اقتراحي يا آنسة ؟

قالت باضطراب :

ـ لم أعد افهم شيئاً يا دون رفاييل . مرة تأمرني بالبقاء هنا في بيتك ، ومرة تعطيني الخيار بالرحيل . تعرض عليّ وظيفة ثم تقرر انني قد لا اتمكن من القيام بها .

ـ ربما ظهر الأمر محيّراً لك يا آنسة . لكن اسمعي تبريري . يوم فقدت عمك وبيتك كنت في حالة اضطراب شديد . لو ذهبت الى انكلترا حينذاك لما وجدت من يعطف عليك ويواسيك . شعرت ان من واجبي ابقاؤك هنا الى حين تستطيعين اتخاذ قرار حكيم . لا يقدر العقل على اتخاذ قرار سليم وهو في حالة اضطراب . ولا يعرف القلب ما يريد وهو في قبضة الحزن .

ثم وقف فجأة وأخذ يمشي في الغرفة الواسعة وعينا فانيسا تلحقانه بدون ارادة منها . كانت ترتجف . ربما لاحظ ذلك فتظاهر بانزال كتاب كبير عن أحد الرفوف . وأضاف قائلاً :

ـ الآن اعطيك حرية القرار يا آنسة كارول . بامكانك العودة الى انكلترا ساعة تشائين .

قالت باندفاع :

ـ وماذا بالنسبة الى باربرا ؟

نظر اليها نظرة طويلة وقال :

ـ تبدين مهتمة ببارباربرا كثيراً . لماذا ؟ أتعلمين شيئاً لا اعرفه ؟

قالت وأحست بريقها يجف تحت نظراته الفاحصة :

ـ ليس تماماً .

ثم وقفت وأكملت :

ـ أنا شاكرة كرمك يا دون رفاييل . لكنني أفضل ان أكسب النقود بنفسي . لقد قبلت عرضك أن أكون مرافقة باربرا . . . من اجلها ومن أجلي انا ايضاً .

قال مسرعاً :

ـ من اجلك انت على الأكثر يا آنسة ، فانت لا تتحملين قبول أية مساعدة مني .

اندفع الدم حاراً الى وجهها وهي تجيب :

ـ عفواً سيدي ؟

ـ كما تريدين يا آنسة كارول . قد تشعرين بالراحة معنا اكثر ان كنت تكسبين عيشك بنفسك .

بالطبع كانت فانيسا شاكرة لضيافته وكرمه لكن فكرة مرّت ببالها . . . ربما كان يفضل لو تذهب . ربما لم يكن يرحب كثيراً بهذه

المسؤولية الجديدة الملقاة على عاتقه ، مهما يكن فبصفتها مرافقة ابنته ستصبح علاقته بها رسمية . وذلك أفضل بكثير .

ـ هل أعلم انا باربرا بالأمر ، ام تفعلين ذلك بنفسك ؟

أجابت باختصار :

ـ أنا افعل .

وقبل أن تتمكن فانيسا من تمني ليلة طيبة للدون والهروب من حضوره الطاغي ، كان قد اخذ كتاباً صغيراً ونظر اليها قائلاً :

ـ من المؤسف حقاً انك لا تقرأين اللغة الكاستيلية . كنت ستتمتعين بهذا الكتاب . انه أشعار آل سيد . هل سمعت بآل سيد ؟

اشارت بالايجاب وقلبها يخفق بعنف فقد كانت نظرته اليها طويلة وفاحصة .

ـ بما انك لن تستطيعين قراءة الأشعار ، سأريك أشياء اخرى تسرّك .

أمسك بيدها وقادها الى خزانة في زاوية المكتبة ، عندما فتحها لم تصدق فانيسا عينيها . كانت مليئة بأشياء كثيرة ثمينة ورائعة . كان فيها المراوح المصنوعة من الحرير المزركش والعاج ، والأمشاط المرصعة بالجواهر وحلى من الفضة والذهب بالاضافة الى مجموعة جميلة من الشالات الاسبانية المختلفة .

قال مبتسماً :

ـ هذه الأشياء كانت لوالدتي . أذكر عندما كنت صبياً كم كنت أحب ان اجلس وأراقب والدتي وهي تختار قلادة أو أسوارة تجربها وهي تبتسم لوالدي وتسأل رأيه . كنت اشعر بالغيرة من والدي . كانت نظراتها اليه كلها حباً وولهاً . طبعاً كانت هناك نظرات جميلة

من نصيبي لكنها كانت تختلف .

وضحك بحنان ، ثم تناول عقداً من الأحجار الخضراء اللامعة وقال :

ـ هذا العقد من الزمرد الجميل من كولومبيا .

ثم رفع عينيه عن العقد في يده الى عنق فانيسا وأردف :

ـ هل تجربينه ؟

ـ بالطبع لا !

وابتعدت مسرعة ومرتبكة وهي تقول :

ـ لست . . . لست أهلاً لذلك !

ارتفع حاجباه بنظرة فاحصة ألقاها على فانيسا من رأسها الى اخمص قدميها وقال :

ـ حقاً ؟ أهي عادة عند الفتاة الانكليزية أن تنكر جمالها ؟ أظن لون الزمرد الأخضر يناسب جداً لون عينيك . أو ربما تلمحين الى الثوب الذي تلبسينه ولا يناسبك ؟

احست بالحرج وبدون وعي ضغطت بيدها على الثوب الأزرق الذي تلبسه . الثوب الذي أعطتها اياه باربرا . لقد لاحظ الدون كم يتنافر لونه الأزرق مع لون عينيها الأخضر .

هز الدون كتفيه وأعاد العقد الجميل الى مكانه ، ولاحظت فانيسا انه لم يقفل الخزانة . ترى أهذه الدرجة يثق بالخدم والعاملين في القلعة ؟ الجميع يحبه ويخافه ، قالت فانيسا لنفسها ، اما انا فأخافه .

نظر اليها الدون وكأنه ينظر الى شخص آخر بعيد :

ـ كم كانت أمي تبدو جميلة وهي تضعه حول عنقها .

ـ هل ماتت من زمان يا سيد ؟

سألته بهدوء بينما كانت تفكر بأن صوته القوي العميق يصبح اكثر

جاذبية عندما يهمس .

ـ والدتي لم تمت يا آنسة .

ونظر اليها مندهشاً .

ـ بعد وفاة والدي مباشرة اعتزلت امي العالم لتعيش في دير في سيغوفيا . كان حبها له كبيراً لدرجة لم يعد العالم يعني لها شيئاً بعده . هل يدهشك ذلك يا آنسة ؟ ألا يمكنك فهم حب كبير كهذا ؟

نعم ، تفهم جيداً حباً كهذا . لكنها أرادت أن تسأله :

ـ وماذا عنك يا دون رفاييل ؟ لم تكن قد تجاوزت العشرين من عمرك فكيف تركت لك كل تلك المسؤوليات ؟

لم تطرح فانيسا السؤال فقد كانت الكآبة تملأ وجهه . اشار نحو الشرفة وابتعد عن الباب لتخرج فانيسا قبله .

ارض الشرفة من الموزاييك الجميل وفي الزوايا تماثيل منحوتة من الحجر والرخام . بدأ الدون يشرح لفانيسا عن تلك الأشياء الجميلة وكانت أفكارها بعيدة . الحنان الذي رأته في عيني الدون ! كم استغربته . والخوف الذي يملأ قلبها كلما وجدت نفسها وحيدة معه ! الخوف من ضعفها أمامه .

ـ آنسة كارول ألا تتمنين احياناً لو كنت تعيشين في أحد العصور الماضية ؟ . . . في عصر رومانسي مثلاً . هل تؤمنين بالحب ؟ ألست انت التي وصفتني بالقسوة لأنني منعت باربرا من الخروج وحدها للقاء حبيبها ؟

قالت له بجرأة :

ـ انا وأنت يا سيدي لا نؤمن بنوع واحد من الحب . أنت تريده مكبلاً بالقيود والممنوعات .

ـ اذن تجدينني تقليدياً . اليس كذلك ؟

وابتسم ابتسامة ملتوية وتابع :

ـ قولي لي . كيف تفسرين أنت الحب ؟ أهو لعبة ؟ غريب ان اجمل وأعمق كلمات عن الحب قالها انكليزي : « انت الروح فيّ ، التصق بك كما النار باللهب . »

لو كانت فانيسا مع رجل غير الدون على شرفة تضيئها النجوم ، والرجل يسمعها كلاماً جميلاً كهذا ، لكانت ظنت انها مقدمة ليقول انه يحبها . لكن الدون رفاييل دوميريك ! بالطبع لا .

ـ ربما كان الانكليز لا يجيدون الا الكلام عن الحب !

قال بمرح ساخر :

ـ احب ان اتخيل قصة حب بين شخص لاتيني وفتاة انكليزية . ترى بأية سرعة يطفىء جليدها نار عواطفه ، أو ربما تذيبها حرارته . تلك فكرة ! بالطبع يمكن تذويب جليد الانكليز ! اليس كذلك ؟

ـ اتسألني ؟

دخلت اللعبة معه شاكرة العتمة التي تخفي وجهها الملتهب عن عينيه العميقتين .

قال بلهجة غريبة :

ـ بالطبع اسألك . ألم تذبك حرارة حب السيد كونروي ، يا آنسة ؟

قالت بخفة :

ـ هذا سؤال شخصي جداً .

قال برقة غير عادية :

ـ الغور في عمق الشخصية وتركيبتها النفسية لعبة يحبها الاسبان .

ـ لكني لست اسبانية يا سيدي !

وعاد اليها تحفظها كله عندما ذكر اسم جاك كونروي .

أطلق ضحكة عصبية وقال :

ـ ربما من اجل ذلك أحب الغوص في أعماق شخصيتك ، يا آنستي ، هيا . . . لا تغضبي انها فقط لعبة .

قالت بحدة :

ـ اكره ان يضع أي كان مشاعري على طاولة التشريح . هذا اقتحام أرفضه .

قال بلهجة سليطة :

ـ غريب ان تقول امرأة ذلك . النساء ، حسب خبرتي ، يرحّبن بهذا الاقتحام كما سميته .

ـ يظهر ان خبرتك مع النساء خلت من البراءة يا سيد .

قال بلا مبالاة :

ـ لا يمكن لرجل ان يتفادى ذلك . الخبرة لا تأتي من البراءة . لا يمكن اعطاء الطهر حق قدره الا بعد معرفة البشاعة .

صحيح ! فكرت فانيسا في نفسها بسخرية . لم لا تظن ان كلمة الطهر تنطبق على الأرملة لوسيا مونتيز ! لكن يظهر ان عين الحب عمياء ، كما يقولون .

قال بلهجة ساخرة :

ـ اعتذر . واجهتك بسؤال من الطبيعي ان يزعجك . لكني اسباني ولا استطيع مقاومة أي تحد . انت معي دائماً على حذر . هل ندخل ؟

وسارت فانيسا امامه . أقسمت لنفسها أن تتفادى اللقاء به على حدة ان كان ذلك ممكناً .

انحنى الدون بكل تهذيب وتمنى لها ليلة طيبة . أجابته بالمثل وأسرعت خارجة من المكتبة ثم اتجهت الى غرفة نومها .

www.elromancia.com

كانت كونسيبسيون كالعادة قد أبعدت الغطاء عن السرير ووضعت قميص نوم فانيسا والعباءة في مكانهما المعتاد . كم كانت العباءة الخضراء تذكرها بثوبها الأخضر الذي كانت تحبه كثيراً ، هناك في أورداز ، في بيتها ، حيث لم تكن غريبة ولم تكن « اجنبية » . وقررت فانيسا ان تشتري ثياباً خاصة بها عندما تحصل على أول اجر لها كمرافقة لباربرا .

عندما استيقظت صباح اليوم التالي ، كان كل شيء جميلاً ومنعشاً . البحر . . . الجبال البعيدة . ودفء الشمس المستيقظة . انسلت فانيسا خارجة من البيت بهدوء شديد .

كان الرمل دافئاً على شاطىء البحيرة الصغيرة الخاصة التي تتصل بالبحر من الجهة الأخرى . خلعت فانيسا صندلها وبدأت تركض حافية باتجاه الكوخ الصغير المحاذي للبحيرة .

لم يكن الكوخ مقفلاً . دخلت فانيسا لتخلع ثيابها وترتدي ثوب الاستحمام . ألقت نظرة سريعة على أكوام المجلات وعلب السكائر ، ثم ذهبت لتفتح الخزانة المليئة بثياب السباحة . كانت باربرا قد أخبرتها ان هذه الثياب لاستعمال الضيوف الذين قد يخطر ببالهم ان يسبحوا في البحيرة . يفكرون بكل شيء ، قالت فانيسا لنفسها وهي تختار ثوباً اخضر اللون .

كان الماء منعشاً وسبحت فانيسا باستمتاع شديد . ستقضي نصف ساعة ثم ترتاح قليلاً على الصخرة الكبيرة وسط البحيرة وتعود الى القلعة .

كانت الصخور دافئة . استلقت فانيسا على ظهرها مغطية عينيها من الشمس بذراعها . وبدأ النعاس يغالبها عندما سمعت حركة قريبة منها . انتفضت جالسة . من تراه يكون في هذه الساعة

المبكرة ؟

لم تكن في رأسها صورة واضحة عمن تتوقع ، لكنها بالتأكيد لم تكن تتوقع الرجل الطويل الأشقر الذي رأت . كان شخصاً غريباً لم تره من قبل . نظر اليها دون أن يفوته شيء من رأسها الى قدميها ، وقال باسبانية تحمل لكنة اجنبية :

ـ انه نهار جميل يا آنسة .

وانحنى لها .

ضحكت فانيسا لنفسها . لا يظهر عليه انه خادم لأي كان . وجهه يحمل تعبيراً متهكماً غير مهتم برضى الآخر عن وجوده او عدم رضاه . كان الأمر مثيراً . لقد ظنها فتاة اسبانية .

اجابت بالانكليزية وقد لفت ذراعيها حول ركبتيها :

ـ صباح الخير .

قال بابتسامة عريضة :

ـ انت انكليزية اذن ؟ يا الهي كيف ظننتك اسبانية بهذا الشعر الأحمر ؟

ومد لها يداً كبيرة قوية .

ـ غاري السنغ يا آنسة . . . ؟

قالت مخفية اسمها الأول عن قصد :

ـ كارول . أنت سائح هنا يا سيد السنغ ؟

ـ بالطبع لا . انا اعمل هنا مع شركة نفط كبيرة . هل انت سائحة ؟

ـ انا اعمل في القلعة عند الدون رفاييل .

أطلق صفيراً طويلاً وقال :

ـ هذه مفاجأة ! ترى ، هل انت مرافقة جديدة للسيدة العجوز ؟

ـ لا . انا مرافقة ابنة الدون . احضرني من اورداز عندما بدأت الثورة هناك . لقد أسدى لي معروفاً كبيراً وأنا شاكرة له .

قال وهو يمسد شعره المبلول :

ـ بالطبع يا آنسة . بالطبع . انه اجنبي طيب .

ـ نحن الغريبان هنا يا سيد السنغ . الجزيرة محمية اسبانية .

ـ هيا آنسة كارول . دعينا ننسى آنسة وسيد ! ما نحن الا غريبان محاطان بكل هؤلاء الاسبان . لنكن صديقين .

ولأنه ذكرها قليلاً بجاك كونروي ، ابتسمت له وأخبرته ان بامكانه ان يناديها فانيسا . على الأقل هو رجل من جنسها وتستطيع التحدث اليه بكل راحة وحرية على خلاف سكان القلعة الذين لا تشعر معهم بذلك .

ـ اذن ، كنت تعيشين في اورداز . سمعت ان الثورة قاسية هناك . ماذا حدث بالضبط . . . أو ربما لا تريدين التحدث في الموضوع ؟

برغم مظهره الساخر كان هناك جو من الدفء يحيط بهذا الرجل جعل فانيسا تشعر بالراحة . أخبرته باختصار ثم انهت الحديث بذكر عرض للدون بخصوص وظيفتها الجديدة وقبولها ذلك .

ـ يقولون ان لدى سيد القلعة اسباباً شخصية دائماً من وراء كل عمل يقوم به . هل تعنين شيئاً بالنسبة اليه ؟

قالت فانيسا بحدة :

ـ بالطبع لا ! ولا اظن اني أروق له . كل القصة انه كان صديق عمي وكاسباني يشعر ان من واجبه الاهتمام بأمري . ثم انني بحاجة الى عمل وأصبحت معتادة على الحياة البطيئة في هذا المكان من العالم !

قال وهو يتمدد بكسل على الصخرة :

ـ هذه الجزيرة جميلة جداً ودائمة كامرأة . هل يزعجك اعجابي بك يا فانيسا ؟

قالت ببطء ، فرغم جاذبيته ومرحه لم يستطع هذا الرجل التغلغل الى اعماقها :

ـ لا ، ما دام الأمر ليس جدياً .

توقفت قليلاً ثم سألته :

ـ أليس لديك صديقة في أميركا ؟

ـ اوه . . . كثيرات . في كل مكان احط به ، لكن ولا واحدة كالمفاجأة التي انتظرتني هذا الصباح . عينان خضراوان كالزمرد وشعر باحمرار النار . أواه !

ـ أنت تغازلني يا سيد السنغ .

ضحك مظهراً اسناناً بيضاء جميلة وقال :

ـ انا ذئب يا عزيزتي . تصوّري مهمة ترويضي !

ألقت نظرة سريعة على ساعة يدها وقالت :

ـ شكراً ، عندي وظيفتي . وأظن الوقت قد حان لأباشر بالعمل .

قام غاري من مكانه مسرعاً وساعد فانيسا على الوقوف .

لحظة وكانت فانيسا في الماء ثانية . قفز غاري خلفها وأخذا يسبحان باتجاه الشاطىء .

سألها برجاء :

ـ نفس الوقت غداً ؟

قالت وهي تفكر بباربرا :

ـ لا ادري .

قد تريد ان تذهب في نزهة مبكرة . لا فائدة اذن من اعطاء وعد . ولا تريد ان تعرف باربرا بأنها تأتي لملاقاة صديق اميركي جديد .

ـ اسمع يا غاري . لا استطيع ان أعد بأي شيء . قد اجيء صباح الغد . هذا كل ما أقدر أن اقول .

ـ يكفي ذلك . الى اللقاء .

ـ الى اللقاء .

ودعته فانيسا وهي تدخل الكوخ لتلبس ثيابها وتعود الى القلعة . وبينما كانت تفعل ذلك كانت تحس بارتياح شديد . لم تعد وحيدة في هذا المكان . اصبح لها صديق يتكلم لغتها ، وابتسمت .

٥- كانت اسيرته في تلك اللحظة كما في كل لحظة . اخذت أنفاسها تتلاحق بصوت مسموع، لأن شيئاً كان يسري في أعماقها كلما لمسها، شيئاً تركها مشدوهة ومرتجفة .

قالت باربرا بلهجة اتهام:

ـ لم تقلبي صفحة واحدة منذ بدأت القراءة. أنت تحدقين بالكلمات المكتوبة فقط.

فقالت فانيسا بنبرة احتجاج وهي تغلق الكتاب:

ـ هذا صحيح.

ـ ليلة أمس أخبرت الدون عني وعن راي، أليس كذلك؟

قالت فانيسا بحزم:

ـ قلت لك مراراً ان هذا غير صحيح. هل كان يترك البيت بهدوء، كما فعل هذا الصباح، لو علم بالأمر؟ كان سيقيم الدنيا على رأسك ويقعدها.

www.elromancia.com

قالت باربرا بمرارة:

ـ انت لا تعرفينه كما اعرفه أنا. انه ينتظر اللحظة المناسبة عندما لا يكون الآخر يتوقعها ولا يستطيع الدفاع عن نفسه. رأيت ما حدث على الشاطىء صباح امس.

ـ ورأيتك أيضاً ترفعين السوط وتنزلين به على يده. كنت محظوظة اذ لم يلحق بك ويعلّمك درساً قاسياً.

ضحكت باربرا وقالت:

ـ ألم أقل لك يا فانيسا انه رجل من حديد؟

بعد ظهر ذلك اليوم طلبت باربرا من فانيسا الذهاب معها الى غرفتها. رحّبت فانيسا بالفرصة. ربما استطاعت الافضاء بالنبأ اليها. نبأ قبولها وظيفة مرافقة.

اكتشفت ان باربرا غارقة في حب راي حتى اذنيها. كانت تتكلم عنه وترقّ عيناها بشكل لا يمكن تجاهله. وبعصبية ظاهرة كانت تدخن السيكارة تلو الأخرى. قررت فانيسا ان تقول رأيها بصراحة. أليست مسؤولة عن هذه الفتاة من الآن؟

ـ هل كنت تقابلينه في الخفاء لولا شعورك بأن الدون لا يوافق على مثل هذه العلاقة؟ وهل كنت تخشين شيئاً ان انا اخبرته بما يحصل خلف ظهره؟

سألت باربرا بحدّة:

ـ ما الذي يجعلك تنفرين من راي؟ ما الذي تعرفينه عنه او عن أي رجل آخر؟ انت نفسك أخبرتني انه لا صاحب لك. أتعرفين بماذا افكر في هذه اللحظة؟ ربما أنت تغارين مني.

قالت فانيسا بغضب:

ـ ان كنت تقصدين انني اتمنّى ان التقي راي في الزوايا المعتمة

فأنت على خطأ.

قالت باربرا بسخرية ظاهرة وهي تنفث دخان سيكارتها:

ـ ربما تخافين ان يلتقيك أيّ كان. ليس سراً على كل حال ان الانكليز شعب بارد متحفظ. غريب ان شعباً كهذا لم ينقطع نسله بعد!

أحست فانيسا بكلامها مثل السوط على جلدها. يؤلمها كثيراً ان فروقات أساسية تفسد علاقتها بأناس ستعيش بينهم لمدة غير قصيرة. ربما كان أفضل لو عادت الى انكلترا. وأحست بالدموع تلسع جفنيها. الحقيقة انها لم تعد تشعر بالانتماء لا هنا ولا هناك.

وضعت باربرا ذراعها حول كتف فانيسا وقالت بحنان:

ـ فانيسا... سبّبت لك الحزن مع اني لم اقصد ذلك. لكنك تفكرين تماماً بالطريقة التي يفكر بها الدون. كلاكما يظن اني متهورة العواطف. أليس هذا صحيحاً؟ تظنان اني القي بعواطفي كلها على راي وبأنني ما زلت طفلة لا تعرف ما هو الحب. لكنني اعرف يا فانيسا، اعرف.

مررت فانيسا اصابعها في شعر باربرا الجميل وقالت:

ـ يا عزيزتي. كثيرون منا يخلطون بين الافتتان والحب الحقيقي. والسيد الفاداس شاب جذاب وجميل...

قبّلت اطراف اصابعها بطريقة دراماتيكية وقالت:

ـ آه... ارأيت عينيه؟ يجمعان المرح والعمق. أعرف بماذا تفكرين... بصديقاته الكثيرات قبلي وبأنه ليست له شخصية الدون القوية. لكن من يحب يقبل الحسن والسيء معاً. يا الهي! كيف اكون طفلة وانا اعرف هذه الاشياء؟

كانت اللحظة حساسة لكن فانيسا ارادت ان تكون قاسية لمصلحة الفتاة فقالت:

www.elromancia.com

ـ اني اتساءل يا باربرا. هل كنت ستحبين راي لو لم يكن حسن الشكل؟ لا يمكن ان يكون هذا كل ما تريدين في شريك حياتك.

قالت بحدّة:

ـ اعرف ماذا اريد. لا اريد الزواج من شخص لا اعرف. شخص يُفرض علي. لا يمكنني تحمّل ذلك يا فانيسا. انه تقليد رهيب. وانت تعرفين ان الدون يملك السيطرة الكاملة على حياتي وسيقرر ما يظنه مناسباً لي.

ـ اسمعي يا باربرا. عندي خبر لك.

ثم قامت من مكانها وتمشت باتجاه باب الشرفة واكملت:

ـ طلب مني الدون رفاييل ان اكون مرافقتك.

ـ ماذا تقولين؟

اطفأت سيكارتها واسرعت لتمسك بيدي فانيسا واكملت:

ـ أحقاً ما تقولين؟

فاومأت بالايجاب قائلة:

ـ هل تعجبك الفكرة؟

قالت باربرا ضاحكة:

ـ هكذا اذن. اخيراً اقنعته بايجاد وظيفة لك. نعم يعجبني ان تكوني انت سجّانتي.

احتجت فانيسا بالقول:

ـ جميل جداً ان تسميني سجانة. لكنني يا عزيزتي أفضّل لقب مرافقة.

تطلعت باربرا ملياً الى فانيسا ثم قالت فجأة:

ـ اظن الرجال يحدونك جذابة! هذا الشعر الجميل وهذا الوجه وجلدك الناعم... آه ترى كيف يرى الكومبادر كل هذا؟

قالت فانيسا وقد اندفع الدم الى وجهها كتلميذة صغيرة:

ـ لا اظنه يهتم.

ضحكت باربرا بشقاوة وقالت:

ـ اوه! لكنك لا تحبينه، من الخطر النفور من شخص بهذا الشكل. النفور نوع من الكراهية والكراهية، كما يقولون، هي الحب معكوساً.

مرات كثيرة شعرت فانيسا بنفور شديد من دون رفاييل. هذا صحيح. قالت مسرعة لتغيّر الموضوع:

ـ هيا نخرج نتنزه.

اجابت باربرا وغمزت بعينيها ضاحكة:

ـ هيا.

مرّ الاسبوع التالي بهدوء. كانت لوسيا مونتيز غائبة في زيارة لاحدى صديقاتها وذهب الدون معها بحجة بعض الاعمال. علقت باربرا على قوله هذا لفانيسا وهي تضحك:

ـ عمل ومتعة معاً.

صباح يوم الثلاثاء وعند عودة فانيسا وباربرا من نزهتهما المعهودة على الشاطىء لاحظتا شيئاً ما في جو القلعة. كان النشاط بين الخدم قد عاد بشكل ملحوظ بعد فترة كسل وتراخٍ.

عرفت الفتاتان السبب لحظة دخولهما القاعة الكبيرة لتجدا الدون يجلس الى الطاولة ويبدو منشغلاً ببعض الاوراق.

قالت باربرا بمرح:

ـ اراك قد عدت. كيف العمل؟ على ما يرام؟

ـ لا استطيع التكهن بشيء الآن. يقوم الانسان بزرع البذرة، ولا يعلم الا بعد مرور بعض الوقت ان كانت ستزهر ام لا. كيف تجري

www.elromancia.com

الأمور بينك وبين المرافقة الجديدة؟

ـ لا بأس. أليس كذلك يا فانيسا؟

وضحكت بشقاوة ثم ركضت وعانقت الدون مضيفة:

ـ كلنا افتقدناك مع انك لا تتوقف عن مراقبة حركاتنا وانت هنا.

نظر بتهكم الى فانيسا وقال:

ـ كلكم افتقدتموني، هه؟ أشكّ في ذلك.

سألت باربرا:

ـ هل عادت لوسيا معك؟

ـ لا. أقنعتها صديقتها بالبقاء لمدّة أطول. والآن لم لا تجهزان نفسيكما للذهاب وشراء بعض الثياب؟ أظن الوقت قد حان يا فانيسا لتشتري ثياباً لك بدل لبس الثياب المستعارة.

قفزت باربرا بفرح لكن فانيسا أحست بالانزعاج. لم يدفع لها الدون أجرتها بعد، ولا تستطيع تذكيره بذلك.

قالت بصوت منخفض:

ـ دون رفاييل، استطيع شراء الملابس في أي وقت آخر...

لم يدعها الدون تكمل كلامها. قال بصوت عميق ولهجة حازمة:

ـ ارجو ان لا تعترضي يا آنسة كارول. هناك مخزن جيّد تشتري منه السيدة مونتيز ثيابها وتعجبني بضاعته. سأوصلكما الى هناك وأرجو ان تشتري كل ما تحتاجين اليه دون تردّد.

ـ كل ما تحتاج له مرافقة؟

لم تستطع ايقاف الكلمات التي اندفعت من فمها. نظر اليها بحدّة وقد قطّب جبينه.

ـ تعرفين جيداً انك لست مجرد مستخدمة هنا. ومن زياراتي الكثيرة لاورداز لاحظت انك تختارين ثيابك بدقة وذوق كبيرين.

لست من حجر يا آنسة كارول، واعلم تماماً تأثير فقدان كل شيء على فتاة مثلك. بالطبع لا تعوض الثياب عن فقدان انسان عزيز، لكنك فتاة تحب لبس الثياب الجميلة. هيا، كفّي عن الجدل.

أحست فانيسا نفسها في قفص. كانت أسيرة جاذبية الدون المتدفقة هذا النهار. نظرت اليه وهو يبتسم بحنان ثم ينظر الى ساعة يده ويقول:

ـ أعطيكما عشر دقائق فقط. هيا اصعدا كل الى غرفتها وانزلا بمظهر لائق. لنذهب، هيّا.

وكأننا طفلتان، فكرت فانيسا في نفسها. ليتها تستطيع صعود الدرج ببطء، لكن باربرا التي تحمست للفكرة كثيراً، امسكت بيدها وصعدت الدرج راكضة.

غيّرت فانيسا ملابسها بينما كانت تفكر بالطريقة الطفولية التي تتصرف بها مع الدون. عضّت على شفتها بندم. ترى كيف يفكر بها؟ كيف يراها؟ كان قلبها يخفق بعنف. لم يكن السبب صعود الدرج ركضاً، بل أشياء كثيرة معاً. تشوّقها كامرأة لفكرة شراء ثياب جديدة، يخالطه شعور بالرضوخ دائماً لرغبة هذا الرجل القوي، المستبد أحياناً كثيرة. كم وجدته جذّاباً اليوم. كان الدون بانتظارهما امام سيارته الفضية الفخمة. وساعد الفتاتين على الجلوس في المقعد الخلفي بتهذيب لاتيني مترفع. لا عجب، فكرت فانيسا في نفسها، ان تستغل النساء الاسبانيات هذا الاهتمام ويظهرن كل ضعف وهشاشة امام رجولة هؤلاء الاسبان وشهامتهم.

سأل الدون:

ـ اتريدين ان ابقي سقف السيارة مفتوحاً آنسة كارول؟

ـ نعم. ارجوك. انه صباح رائع.

ـ أيعجبك ان يطير شعرك في الريح؟

قال وعيناه تلمعان بنظرة طويلة الى شعرها وكتفيها النحيلتين. ثم حوّل اهتمامه الى المقود وانطلقت السيارة وسط ممر تحيط به انواع الأشجار المزهرة.

كانت فانيسا تحاول السيطرة على صدرها الخافق بعنف. كان في هواء ذلك الصباح الجميل سحر معين، سحر جعل نبضها يتسارع وجعلها تشعر بصباها يتفتح وبسعادة غامرة لكونها مليئة بالحياة.

من مكانها في الزاوية اليمنى للمقعد الخلفي كانت فانيسا تراقب جانب وجه الدون الجالس الى عجلة القيادة. أشعة الشمس على وجهه أظهرت لونه الأسمر اكثر حدّة وجاذبية. ادركت فانيسا ان موجات الكره والنفور التي كانت تحسها لدى زياراته لعمها قد خفّت حدّتها كثيراً. انها هنا الآن وقادرة على التمتع بجمال لوبندا والتمتع بكونها ما زالت على قيد الحياة. والدون هو الذي جعل ذلك ممكناً. أحست بقلبها يغوص في صدرها ويرتجف. عادت الى ذاكرتها كل الاشياء التي حدثت في اورداز تلك الليلة الرهيبة. لو قاومت ارادته واصرّت على البقاء لحملها على كتفه كما يحمل طفلة.

طافت بسمة خفيفة على شفتيها. هل ظنت حقاً انها تكره الرجل؟ صحيح، يثير غضبها احياناً بكبريائه وتسلطه. لكن هناك جوانب اخرى لشخصيته لم تعرفها الا هنا في جزيرته. انه في اعماقه يخفي تبعاً من الحنان الدافق والدفء الى جانب صلابته الظاهرة. كم ستقاسي زوجة هذا الرجل! لكن في الوقت نفسه، كم ستجد تعويضاً على ذلك!

توقفت فانيسا عن التفكير بالرجل لتصغي الى ما كان يقوله لباربرا. كان يحدثها عن رحلته الأخيرة مع لوسيا وعن الأماكن التي

زارها والاحداث التي صادفتهما.

قالت باربرا وهي تغمز بعينها لفانيسا:

ـ اظن اننا سنسمع قريباً نبأ اعلان زواجك من لوسيا؟ أتدري يا كومبادر انك تحيّرني؟ كيف تأخذ لنفسك من كانت زوجة لسواك؟

قال متهكماً:

ـ حقاً؟ وهل تدّعين معرفتي يا عزيزتي؟

ـ بالطبع. بالقدر الذي تسمح فيه لأحد ان يعرفك.

ومدت يدها بحنان لامسة كتفه مما جعله يبتسم وتابعت:

ـ هيا يا عزيزي، قل لي. ألست تفكر بالزواج الآن؟

ـ وان كنت افكر بالزواج، فليس هذا من شأنك يا صغيرتي، الى ان اكون انا مستعداً لمناقشة الموضوع مع المرأة المعنيّة.

اختلط الحزم بالرقّة في جواب الدون، مما جعل باربرا تصمت وتتطلع الى فانيسا التي ابتسمت. فضول فانيسا ايضاً كان كبيراً. كانت تود ان تعرف متى سيعلن الدون خطبته على لوسيا التي لا بد انها تنتظر ذلك بصبر يكاد يفرغ.

الحب!... وسرحت فانيسا بافكارها. هذا الشعور الغريب. فيه عنف وفي الوقت ذاته هو تجسيد للبراءة. فيه نار تحرق وحنان لا حدود لدفقه. نتوق اليه بوجع ونتمنّى لو نهرب منه. ابتسمت فانيسا لنفسها. كيف تعرف عن الحب كل هذا ولم تمسها ناره!

هنا، في هذه اللحظة وفي سيارة الدون رفاييل، وجدت نفسها تفكر بجاك كونروي. ترى ماذا لو ظهر فجأة في حياتها! احساس ما في داخلها يقول لها انه سيظهر يوماً في مكان ما. قد لا تكون تعمل في قصر الدون رفاييل عندئذ. الدون سيتزوج لوسيا، بالطبع. لن ترغب في وجود فانيسا ومن الواضح ان لدى الدون مشروعاً لتزويج

باربرا.

حدقت فانيسا في يديها المتشنجتين في حضنها. وفكرت بأسى، سيأتي اليوم الذي ستكون فيه وحيدة. وقد تضعف لدرجة تتصور معها شعورها نحو جاك حباً وتقبلا. لكن هل يمكن ان تتخلّى عن الحلم؟ الحلم بأن تجد الرجل الذي يتفانى في حبها كما تتفانى هي في حبه!

تذكرت كيف ردد الدون هذه الكلمات الشعرية على مسامعها وتذكرت الحرقة التي خالطت صوته. ترى أيعشق لوسيا بهذا العنف؟ هل حقاً وجد فيها المرأة التي يتّحد بها كما اللهب بالنار؟

في تلك اللحظة اخذت السيارة تقترب من المدينة. كان منظر البيوت الحجرية القديمة المستريحة في حضن اشجار الزيتون جميلاً. جو يذكّر بالعصور الوسطى. ردّة فعل فانيسا لذلك كانت رعشة طفيفة حالمة. كان للتاريخ حضور طاغٍ. الشوارع ضيّقة والشرفات حديدية تغطيها أزهار شقائق النعمان الحمراء.

باقتراب السيارة اكثر من منطقة الاسواق التجارية ازدادت كثافة السير. ضجيج السيارات ومحاولات الشرطي لتنظيم تدفّق كتل الحديد، أعادت فانيسا الى الواقع الراهن. سمعت الدون يقول لها بنبرة ضاحكة:

ـ انظري الى جهة اليمين يا آنسة كارول. متّعي نظرك برؤية احد اجدادي. انه الرجل الذي اكتشف هذه الجزيرة وبنى القلعة على أعلى نقطة فيها. من هناك كان يراقب مملكته كالنسر القابع في وكره.

أدارت فانيسا رأسها وحدقت في المكان الذي اشار اليه الدون. كان لنظرته الضاحكة صدى عميقاً في نفسها. تباً للرجل! انه يعرف تماماً الصورة التي له في نفسها.

ـ كم كان هذا الجد شرساً! على الأقل هذا ما تنم عنه تقاطيع وجهه!

قالت باربرا ذلك وهي تنظر الى تمثال المحارب المدجج بالسلاح والمنتصب في وسط الساحة. اما فانيسا التي كانت بدورها تحدق في التمثال المنحوت من الحجر، فقد أخذها العجب. العجب من الشبه الكبير بين الدون السابق والدون الجالس في مقعد السيارة الامامي. الأنف البارز والعينان الشبيهتان بعيني نسر كاسر، بالاضافة الى القامة الرشيقة المنتصبة بكل اعتداد وثقة.

قال الدون ضاحكاً وموجّهاً كلامه الى فانيسا:

ـ بماذا تفكرين؟ بالشبه الكبير بيني وبين سلفي الشرس؟

اجابت فانيسا بحماس بينما كان الدون يتأهب لسرد قصته:

ـ يستحيل على أيّ كان انكار الشبه. أكاد اراك تجوب المحيطات وتتجه نحو شواطىء البرازيل والبيرو الذهبية!

ـ لهذا الدون قصة ممتعة أحسده عليها. قصة زواجه من فتاة انكليزية كان القراصنة قد اختطفوها من بيتها. في الوقت الذي وصل فيه القراصنة كانت سفن الدون رفاييل راسية في الميناء. ويقال انه دفع ثمناً باهظاً للحصول على الفتاة في الوقت الذي كان أحد الامراء يحاول شراءها. تصوري يا آنسة كارول. فتاة انكليزية جميلة تباع في مزاد علني يحضره قراصنة ومجموعة من البرابرة وجنود اسبان! لا بد ان فزعها فاق الوصف.

ـ مسكينة. وهل أجبروها على الزواج من الدون؟

ـ ما رأيك يا آنسة؟ ألا ترين ان الزواج منه كان افضل من أي شيء آخر؟ المهم يا آنستي ان السجلات تقول انه وزوجته الانكليزية عاشا حياة سعيدة. للحب طرقه الغامضة!

قال ذلك وضحك بعصبية بينما كان يدير عجلة القيادة الى اليمين حيث أوقف السيارة امام أحد الصالونات الأنيقة. على جانبي المدخل اصطفت آنية الزهور الجميلة وأمام الباب كان يقف بواب في ثياب العمل الرسمية يراقب السيارات الفخمة ويساعد الزبائن.

وبرشاقته المعهودة سار الدون الى الداخل والى جانبه باربرا وفانيسا. هناك وبكل ترحاب واحترام استقبلته صاحبة المكان حيث ترك الفتاتين في عهدتها، قائلاً انه سيعود بعد مضي ساعتين. وبينما كان يهم بالخروج استدار الى فانيسا وغمز بعينه قائلاً:

ـ لن تشتري ثياباً تليق بـ «مرافقة» يا آنستي. ولا شيء باللون الأزرق. مفهوم؟

ابتسمت فانيسا قائلة:

ـ حسناً يا سيدي. لا شيء باللون الازرق وشكراً لك.

اجابها الدون بانحناءة انيقة وخرج مبتسماً ابتسامة قانعة.

ادارت فانيسا عينيها في ارجاء الصالون. رغم كونه على هذه الجزيرة الصغيرة، كانت آخر الازياء واكثرها اناقة معروضة فيه. نظرت اليها مديرة الصالون نظرة فاحصة، مشيرة الى ان لون بشرة فانيسا يجعل اختيار ألوان الثياب التي تناسبه صعباً. ومع ذلك استطاعت انتقاء بعض الثياب التي كما قالت تناسب شعرها المتوهج وعينيها. ثم عهدت بها الى عارضة تدعى روزانا بدأت تضع الثياب وتتمختر بها أمام فانيسا بكل ليونة ورشاقة لتساعدها على الاختيار.

ثم جاء دور عرض فستان من البيج المطعّم باللونين النحاسي والبرتقالي على شكل زهرات متناثرة في مختلف الاتجاهات، وعلى كل جانب من تنورته ألصقت جيبة على شكل قلب. لم تكن فانيسا مرتاحة الى الفستان الأخير، فهو كما بدا لها يناسب فتاة أصغر سناً.

اما باربرا التي كانت تراقب الموقف باستمتاع ظاهر فقد قالت وهي تضحك:

ـ لقد اعطى الدون أوامره وعليك التقيّد بها. ألم يقل لك انه لا يريد ثياباً تناسب «مرافقة»! ثم كيف يمكنك ان تقاومي تلك الجيوب الرائعة؟

رائعة زيادة عن اللزوم، قالت فانيسا في نفسها. لكن الفستان الذي لم تستطع فانيسا مقاومة الرغبة في ارتدائه، كان فستاناً للسهرة من الدانتيلا المخرمة فوق طبقة من الحرير بلون التفاح الاخضر. معه، كانت العارضة ترتدي صندلاً جميلاً من الشرائط الجلدية باللون الأخضر. عندما ارتدت فانيسا الفستان مع الصندل ذي الكعب العالي بدت وكأنها عارضة رشيقة. كتفاها ظهرتا من تحت الدانتيلا الخضراء بنعومة وحياء. كان الفستان يلتصق بجسمها اللين حول الصدر والخصر ثم يتسع لينزل برهافة حول وركيها والى الأسفل. نظرت الى صورتها في المرآة الطويلة. يا الله، انه فستان يليق بمناسبة مهمة. لا يناسبها هي المرافقة ابداً. ابتسمت قليلاً بحرارة وقالت وفي صوتها رنّة ندم:

ـ لا اظن دون رفاييل قصد شيئاً كهذا يا باربرا. انه رائع، لكن من أين اجيء بالمناسبة التي ارتديه لها؟

ضحكت باربرا بمرح وقالت:

ـ قريباً جداً يا عزيزتي سنحتفل في القلعة بعيد الكروم. ستكونين متألقة وستجعلين لوسيا تغار.

ـ لا شكراً لك! ان فعلت هذا أكون بدون عمل بعد يوم على الاكثر. الفستان رائع لكنني لن آخذه. اريد شيئاً اكثر بساطة وبلون معتم اكثر.

لكن باربرا أصرّت خصوصاً بعد ان لمحت الحرارة في صوت فانيسا:

ـ فانيسا، يجب ان تأخذيه.

ـ لا اظن ذلك يا صغيرتي.

قالت فانيسا ذلك ورفعت ذقنها الى اعلى بكبرياء الانكليزية الغريزية. يا ليتها تملك النقود الكافية لشراء هذا الثوب الرائع. شفافيته ورهافة قماشه أيقظت فيها كل مكامن الانوثة والرغبة في الاستحواذ على الاعجاب. رغم كل ذلك عادت الى غرفة القياس لتخلع الثوب وتعود فتناوله الى العاملة في الصالون، لتعلقه بانتظار زبونة اخرى أوفر منها حظاً.

ثم حولت فانيسا اهتمامها الى الثياب الداخلية التي كانت بأمسّ الحاجة اليها. اختارت منها مجموعة جميلة ومجموعة اخرى من ثياب النوم ذات الوان هادئة مريحة.

وقبل ان تخرج الفتاتان من صالون بيع الثياب خطرت لفانيسا فكرة. ربما اصطحبها الدون للغداء في مطعم انيق. من الافضل اذن ان تغيّر ثيابها المستعارة التي لا تلائمها وتلبس فستاناً جميلاً من الفساتين التي ابتاعتها. القت نظرة سريعة على الثياب وقرّ رأيها على ارتداء الفستان الحريري الابيض المحلّى باللون البرونزي. بعد ارتدائه قررت ان الشعر المنسدل لا يناسب قصّة الفستان. ربما اذا رفعت شعرها الى اعلى كان منظرها اكثر احتشاماً واكثر جدية. وهذا ما فعلته، مما دعا باربرا الى التعليق الضاحك عليها وعلى منظرها كآنسة انكليزية حقاً!

وفي الطريق الى خارج الصالون كانت باربرا تسترق النظر بين اللحظة والاخرى الى فانيسا الجديدة هذه. ثم لم تتمالك نفسها

وقالت:

ـ تبدين جميلة يا عزيزتي. لكنني أفضلك عندما يكون شعرك النحاسي منسدلاً على كتفيك.

ـ انا ايضاً افضّله كذلك يا عزيزتي. لكنني الآن مستخدمة الدون فعلياً وأفضّل ملاقاته بشكل رسمي.

ـ هل تخافينه قليلاً يا فانيسا؟

ـ ما هذا الكلام! اية افكار غريبة تعشش في رأسك! ولمَ أخاف من الدون؟

ـ ربما لكونك انكليزية وكونه اسبانياً لا يعرف كيف يتعامل معك بارتياح كما يفعل شبان وطنك. دائماً هو السيد. ولا تستطيعين الانسجام معه!

ـ ان كنت افهم قصدك جيداً يا باربرا، فلا رغبة عندي في الانسجام مع أي رجل كان، وبالتأكيد ليس مع الدون رفاييل! وان كنت...

توقفت فانيسا عن الكلام عندما وجدت نفسها فجأة وجهاً لوجه امام الدون، وانتبهت الى ان صوتها كان عالياً اكثر مما يجب. اندفع اللون الاحمر الى خديها للنظرة الثاقبة التي كان يرميها بها. ترى هل سمع جملتها الاخيرة! بالطبع لم يظهر لها ما يدل على ذلك، فهو كعادته وفي كل الظروف مثال اللباقة والتروّي. حتى لو رغب ان يعرف القصد مما قالته، فقد اخفى رغبته تلك وراء ابتسامة مشجعة.

ـ لا بد انكما جائعتان. هيا سنذهب لنأكل في مطعم السكاي لايت. لم تزوري المكان من قبل يا آنسة كارول لكنك ستحبّينه.

كان المطعم يشغل آخر طبقة من فندق سياحي فخم. عندما فهمت فانيسا ما قصده الدون بقوله انها ستحب المكان، فقد كان

يعج بالعديد من السواح الاوروبيين.

ورغماً عنها، وعند سماع الاصوات التي تتكلم لغتها، نظرت فانيسا حولها مبتسمة... واذا عيناها تلتقيان بعينين رماديتين حادّتين. غاري السنغ! غمز لها بمرح ثم حوّل نظره الى الدون رفاييل الجالس بكل ارتياح الى جانب فانيسا. بالطبع لم يغفل الدون عن تلك النظرة الفاحصة، وقبل ان تغيب البسمة عن شفتي فانيسا كان الدون قد استدار اليها ورمقها بنظرة ثاقبة قائلاً:

ـ اذن انت تعرفين السيد السنغ؟

ـ قابلته مرة على الشاطىء. لم يمكنني تجاهل لطفه، أو هل كنت تتوقع مني كمستخدمة لديك ان أحيله الى حضرتك لتقوم بتقديمي اليه كمرافقة تعمل في حماك؟

يا إلهي، عادت الى تلك اللهجة وعاد التوتر بينهما. استطاعت فانيسا رؤية ذلك في انقباض عضلات وجه الدون.

ـ انت حرة يا آنسة كارول في اختيار اصدقائك. والسيد السنغ يذكرني كثيراً بذلك الشاب كونروي. الا توافقين؟

باربرا التي كانت تجلس باسترخاء في مقعدها تراقب باهتمام ما يجري قالت بحماس:

ـ كونروي؟ هل هو الشاب الذي أخبرتني كم كنت تتمتعين بعناقه يا فانيسا؟

فقط لو تنشق الارض وتبتلعها في تلك اللحظة! لكن الارض بقيت متماسكة تحت قدمي فانيسا المرتجفتين. الا تكفي لهجة الاحتقار في صوت الدون كلما جاء على ذكر جاك؟ وبغضب شديد قالت لباربرا:

ـ ظننتك تحفظين سراً! لو كان لدي أدنى شك في انك ستخبرين

أياً كان...

واندفع الدم حاراً في عروقها. وازداد الحرج وهي تشعر بعيون الدون الفاحصة ترقب احمرار وجهها.

ـ لا بأس يا آنسة كارول. لا بأس. ما همّ ان فضحت باربرا سرّك الصغير هذا؟ أنسيت كم مرة رأيتك وذلك الشاب تنسحبان بهدوء للتمتع بالليالي المقمرة في زاوية مهجورة؟

لم تعد فانيسا تستطيع احتواء غيظها. كيف يجرؤ؟ كيف يجرؤ على السخرية من مشاعر الآخرين؟ او هل تكون مشاعره اكثر سمواً وبراءة؟ ومن صنع السماء؟ لا... لا تظن ذلك. وماذا يربط أرملة طموحة برجل في أواسط الثلاثينيات، رجل يفضل المصلحة الاجتماعية على براءة لمسات الحب الصادق البسيط؟

هذا الرجل وحش. وبغضب نفضت فانيسا فوطة المائدة ومدتها على حضنها، بينما كان النادل يضع المقبلات على الطاولة... حبات الزيتون الخضراء، الخيار المخلّل والأسماك الصغيرة.

اجبرت فانيسا نفسها على وضع حبة زيتون في فمها. كادت الحبّة ان تخنقها لكنها حاولت استعادة رباطة جأشها والظهور بمظهر اللامبالي. اضافة الى ذلك وبتحدّ للدون، نظرت باتجاه غاري مبتسمة. وبادلها الشاب الابتسام. كم تحسده على ارتياحه في التعامل مع الآخرين.

اما باربرا فلم ينقص شهيتها شيء. كل التوتر الواضح بين الدون وفانيسا لم يمنعها من التهام المقبّلات والثرثرة المستمرة.

حاول الدون جاهداً مجاملة الفتاتين والتحدث اليهما. لاحظت فانيسا ذلك فهي تعرف تماماً السهولة والحماس اللذين يتحدث بهما الدون عندما يكون في أحسن حالاته. اين هذا الرجل المهذب البارد

من ذلك الاسباني الذي تناولت معه الفطور على شاطىء الجزيرة يوم وصولها؟ ذلك الرجل الراقي الذي ما كان مهتماً بالريح تعبث بشعره كيفما شاءت. كان ذلك الصباح حلماً ورديا مشبعاً بعطر الجزيرة الساحر.

خلال فترة الغداء كانت النظرات الفضولية تنصب على الدون والفتاتين. لم يكن يصعب على احد ان يكتشف ان شخصية مهمة تتناول الغداء في المطعم. اهتمام المسؤولين بالرجل كان واضحاً. ثم هناك أيضاً اناقته المفرطة وتصرفاته ذات النكهة الارستقراطية، وبالطبع قامته الرشيقة وتقاطيع وجهه النبيلة وكأنها منحوتة من الرخام بيد فنان ماهر.

ومما زاد فضول الزبائن جلوس الرجل بين جميلتين احداهما فيها كل سحر المتوسط، والثانية طراوة الغرب.

استفاقت فانيسا من احلامها لتلتقي عيناها بنظرة نافذة من عيني الدون الذي بادرها بابتسامة قائلاً:

ـ ثوبك الابيض جميل جداً يا آنسة كارول. آمل ان تكوني انتقيت ثياباً تليق بكل المناسبات. قريباً جداً سنحتفل بعيد الكروم في القلعة. ستلتقين نساء يهمهن المظهر كثيراً. النساء الاسبانيات طاغيات الأنوثة، مغرورات بعض الشيء. ومن اهتماماتهن الأولى مظهرهن الخارجي و... مظهر النساء الاخريات ايضاً. هل ابتعت ثياباً للسهرات؟

ـ نعم يا سيدي. انا شاكرة لك كرمك لكن...

ـ آه. اعرف ما ستقولين... يجب ان ادعك تردّين الجميل في أحد الايام. لا تخشي شيئاً يا آنستي، انت مدينة لي ببعض الثياب. بوظيفة ويمكان تأوين اليه. ستكون الفاتورة هائلة، لكن أعدك يا

آنستي اني سأقدّمها لك يوماً.

كانت ابتسامته وهو يتكلم غريبة، ومتوترة الى درجة التهكم، ثم استرخى في مقعده ومال بجسمه الرشيق الى الوراء حين التقت عيناه بعيني سيدة أنيقة وجذابة. ابتسمت له المرأة بكل دلع الاسبانيات وأنوثتهن.

وبنظرة سريعة الى وجهه الداكن، استطاعت فانيسا ان ترى كل نهم الرجال في عينيه.

ذكّرتها تلك المرأة بلوسيا مونتيز. ترى هل احتضنها الدون مساء الأمس وهمس في اذنيها على رجاء ان تعود معه الى القلعة؟ هل قال لها بكل أشواق الارض الدافئة انها له وله وحده؟ وهل تراه قال لها ذلك بالكلمات ام كان عناقه الحار كافياً لاخبارها؟

وجدت فانيسا نفسها تحدق في الدون وهي تمسح فمها بفوطة المائدة. هاتان الشفتان الرقيقتان كم تنمّان عن قسوة! والغريب في الأمر انهما في اللحظة التي يفتر فيها ثغر هذا الرجل عن ابتسامة، تتحولان الى التعبير عن الطيبة كلها. طبع هذا الرجل العجيب المليء بالمتناقضات يظهر واضحاً في تكوين فمه فهو يقول انه عاشق لا مثيل له. لا يحتاج الاّ للمرأة التي تعرف كيف تصل الى اعماقه لتتمتع بكل كنوزه الواعدة. ولوسيا المرأة الاسبانية حتى اصابع قدميها، تعرف دون شك سر هذا الوصول الذي يجعل من الدون خاتماً حول خنصرها.

انتفضت فانيسا في تلك اللحظة عائدة من تصوراتها، فقد احست بيد تشد على كتفها بلطف، وسمعت صوتاً مرحاً يقول:

ـ بودّي ان اصطحب الآنسة كارول الى العشاء ذات ليلة يا دون رفاييل. موافق؟

ـ بالطبع يا صديقي.

أجابه الدون بلهجة باردة وهو ينقل بصره من وجه الشاب الأميركي الذي لوّحته الشمس الى وجه فانيسا الذي علته الدهشة. فهي لم تكن تتوقع ان ينقل غاري ناره الى ساحة الدون. كانت تستمع اليه يسأل عن الليلة التي تكون فيها حرة وهي مشدوهة.

ـ الآنسة كارول حرة تختار الليلة التي تناسبها. وأنا أكيد انها ستسر بصحبتك، يا صديقي، بعد كل هذه الأسابيع بصحبة الأجانب. ومتأكد ايضاً ان طباع أهل أميركا الشمالية تتوافق مع طباع الانكليز. أتوافقني يا سيد ألسنغ؟

كان صوت الدون حاداً وبارداً كالمعدن. لكن ذلك لم يؤثر على الشاب الذي ضحك بمرح قائلاً:

ـ بالطبع أوافقك يا دون رفاييل. فانيسا، سأمرّ مساء السبت في الساعة الثامنة والنصف لاصطحبك. وستكون ليلة رائعة. أتناسبك ليلة السبت؟

كم يبدو مرحاً وواثقاً من نفسه.

ـ حسناً يا غاري.

لم تكن فانيسا متأكدة من رغبتها في الخروج معه. تعترف انها استمتعت بالتحدث اليه على الشاطىء ذلك الصباح. لكنها لا تريد ان تستعجل الأمور. فهو رجل مكتمل وجذاب وهي فتاة تعيش وحدة قاسية مما قد يدفعها لارتكاب الحماقات...

ـ حتى مساء السبت اذن يا حلوتي. وشكراً يا حضرة الدون على اعطاء الضوء الاخضر!

ابتسم له الدون ابتسامته المتحفظة الباردة ثم قال:

ـ لا تنسَ أيها السيد انه في بيتي لا يسمح لأي فرد كان البقاء خارج

القلعة بعد العاشرة والنصف مساء. هذا تقليد البيت الاسباني، لهذا اتوقع منك اعادة الآنسة كارول في الوقت المحدد.

أطلق غاري ضحكة استنكار عالية وقال:

ـ ماذا؟ لا بد انك تمزح!

ـ لا يا سيد ألسنغ. انا لا أمزح.

ـ لكنك تدرك يا حضرة الدون انه لا يمكنني ان اعدك بذلك.

ـ اظن انه من الافضل لك العمل بما اقول به. الآنسة كارول في رعايتي طالما هي على هذه الجزيرة. ويخيل الي انه وقت كافٍ للتمتع بصحبة امرأة. تصطحبها في السابعة والنصف وتعيدها في العاشرة.

ـ هذا تزمّت رهيب يا دون رفاييل. فانيسا فتاة انكليزية وغير معتادة ان يقرر عنها رجل كيف تتصرف. الساعة العاشرة! يا إلهي. بالكاد تكون السهرة قد ابتدأت. هيا يا سيدي كن عطوفاً! اليس بين ضلوعك قلب؟

ـ صدّق او لا تصدق يا سيد ألسنغ، لكن لي قلباً وأفهم مشاعرك حق الفهم. ثم، بدأ صديقك يتضايق من الانتظار.

رمى غاري نظرة سريعة باتجاه الرجل الذي كان يتناول معه طعام الغداء، ثم رفع يده بحركة عصبية الى ربطة عنقه ووجه الكلام الى فانيسا:

ـ أنت حقاً في ورطة. سأرى ما يمكنني فعله من أجلك يا حلوتي. الى اللقاء.

وبخطوات غاضبة انضم الشاب الى رفيقه وخرجا من المطعم. كانت فانيسا تحدق بالدون الواثق من نفسه والشرر يتطاير من عينيها الخضراوين. بحق الله كيف يستطيع هذا الرجل ان يقبض على زمام حياتها بهذه السهولة وهذا التصميم؟ كل عنجهية أسلافه وحسّهم

الاقطاعي تتمثل في هذا الرجل الداكن اللون والجالس قبالتها. . .

ـ أنا لست طفلة يا دون رفاييل. استطيع الاهتمام بنفسي.

ـ تقولين هذا بتحدٍ يا آنسة كارول. وأشك في انك حقاً تصدقين ما تقولين.

ـ انت لا تطاق احياناً!

لكن في اعماق نفسها كانت تعرف انه على حق. فغاري ألسنغ بعينيه الحيويتين ومزاجه المرح كان بالفعل شبيهاً بجاك كونروي. وقد تجد نفسها تميل اليه دون ان تدري. وقد تظن ذلك حباً وأماناً وتتمادى أبعد مما يجب. . .

ارتجفت فانيسا عندما أحست باصابع الدون الرقيقة تشدّ على يدها وهو يقول:

ـ التلاعب بالعواطف هواية لا أحبذها. والسيد ألسنغ كما يبدو لي خبير بها. تذكرين يوم أحضرتك الى لويندا اول مرة، اخبرتك انه بعد موت عمك الطيب سأضع نفسي في موضعه وأكون لك مرشداً. انا رجل عند كلمته يا عزيزتي.

وكما لو كان يرغب في تأكيد كلماته، كانت اصابعه تضغط اكثر فأكثر على معصمها وكانت عيناه العميقتان تغوصان بعيداً بعيداً في عينيها الحائرتين. حاولت فانيسا تخليص معصمها من قبضته او التحرر من نظرته النافذة، لكن دون فائدة. كانت اسيرته في تلك اللحظة كما في كل لحظة. اخذت انفاسها تتلاحق بصوت مسموع. انها تكرهه. . . تكرهه لأنه على حق فيما يتعلق بغاري. . . وتكرهه لأن شيئاً كان يسري في جسمها كلّما لمسها، شيئاً تركها مشدوهة ومرتجفة.

قاومته قائلة:

ـ سأتخذ غاري صديقاً ان اردتِ. لن يكون بامكانك فعل اي شيء حيال ذلك.

ـ على العكس تماماً يا آنسة. هناك دائماً ما يمكنني فعله بصدد ما يحدث في الجزيرة. والسيد ألسنغ موظف هنا. أليس كذلك؟

وشدّ على يدها اكثر فاكثر الى درجة الوجع. كادت فانيسا تختنق. لا يمكنها تصديق ذلك. هل يمكنه حرمان غاري من وظيفته! لكن نظرة واحدة الى وجه الرجل قالت لها الكثير. سيد لويندا هذا يستطيع الوصول بقسوة ووحشية الى كل ما يريد. كل هذا واضح في عينيه. في قبضة يده التي بدأت تؤلم معصمها وفي دقات قلبها المتسارعة.

٦ ـ جاءت الى هذه البلاد منذ اربع سنوات وضربت جذورها في اعماق تربتها . كيف تقتلعها الآن ؟ كيف تترك الشمس والبحر وكل نجوم السماء في الليل ؟

الوقت ليلة الجمعة ، وفانيسا مستلقية في فراشها تستمع الى الزيزان وحفيف سعف النخيل ، وبين وقت وآخر زعيق طائر ليلي آت من بعيد .

كأنها في أورداز . . . أصوات الليل ذاتها . أورداز ! كم كانت سعيدة هناك وحرة . تنهدت فانيسا للفكرة وأخذت تتململ في فراشها محاولة اصطياد النوم الذي كان يجافيها هذه الأيام . مسدت مخدتها وحاولت التركيز على دقات الساعة ، لكن حلاوة النوم وسلامه بقيا يتهربان منها .

اللعنة ! قامت من فراشها بهدوء ولفّت عباءتها حول كتفيها . العباءة التي اشترتها مع بقية الثياب منذ بضعة ايام . كان باب الشرفة

مفتوحاً ، خرجت منه فانيسا وأخذت تحدق بالنجوم . ثم حوّلت نظرها الى البحر وكان سطحه يعج بحبات اللؤلؤ . انطلقت صرخة طاووس كأنها الشؤم فضاعفت احزان منتصف الليل التي كانت تضطرم في داخلها .

أخذ الحزن يسري من قلبها الى جسمها كله وهي تنظر باتجاه اورداز . لماذا تنظر في ذلك الاتجاه ؟ عما تبحث ؟ عن العم الطيب الذي ضاع منها والى الأبد . . . أم عن الوعد الهارب كشعاع شمس ، والذي كان يملأ النزهات ، ولعبة كرة المضرب ، ورحلات الصيد ، والمناقشات التي كانت تتمتع بها بصحبة جاك كونروي المرح ؟ أين يكون جاك الآن ؟ لا ليس في الفندق في تشيلي حيث كانت تبعث برسائلها . لا بد انه في أحد الأدغال الخضراء بحثاً عن الماس والزمرد .

طافت ابتسامة على شفتيها ما لبثت ان اختفت اذ تحولت افكارها ورغماً عنها الى الرجل الذي احضرها الى لويندا .

منذ تلك اللحظة في مطعم السكاي لايت وفانيسا مضطربة . كم تكره هذا الشعور . . . كأن روح التحدي عندها قد سحقت من قبل رجل استعمل جاذبيته وسلطته بطريقة جعلتها تخضع رغم ارادتها .

السلطة الأكبر لمن له سلطة على نفسه . هذه الكلمات التي ترددها فانيسا لنفسها كم هي صحيحة . وشدت قبضتها على قضبان الشرفة . قضبان حديدية تسجنها في قلعة من صنعها هي ! لتكن عادلة . فالدون عرض عليها دفع تكاليف سفرها الى انكلترا .

لكن ماذا فعلت هي ؟ استفاقت فيها كل مشاعر الكبرياء الانكليزية وأصرت ان تعمل لتكسب بنفسها أجرة الطريق وما يكفيها لدراسة السكرتاريا . انها هي التي اعطته السلطة عليها

كمستخدم ، وهي تعي ذلك كله الآن .

وبالمقابل ماذا ؟ تعلقها بباربرا يزداد يوماً بعد آخر وينقص من استقلاليتها . استقلاليتها ؟ ألا تعرف مقدار تعلقها بهذه المناخات الاستوائية ؟ الا تعرف انها ان حرمت منها فسيموت أو على الأقل يذبل كل شيء حيوي في داخلها ؟ جاءت الى هذه البلاد منذ اربع سنوات وضربت جذورها في اعماق تربتها . كيف تقتلعها الآن ؟ كيف تترك الشمس والبحر وكل نجوم السماء في الليل ؟ وكيف تترك رتابة أصوات الزيز في الليالي الدافئة ، تلك الأصوات التي اختلطت بدقات قلبها . . .

دقات قلبها كم هي سريعة ، تصعد الى حنجرتها كعصفور حبيس يبحث عن مخرج . في الحديقة تحت شرفتها التقطت عيناها لمعة ضوء تتحرك . قد تكون يراعة مضيئة . لكن لا . ليست يراعة . انها ضوء سيكار .

رجل مديد القامة كان يقف هناك محاطاً بظلال منتصف الليل ، وحيداً يدخن سيكاراً وسط ايحاءات القرون الوسطى التي ينشرها البناء القديم . كان الدون رفاييل الذي تذكر فانيسا كيف لمعت عيناه وهو يخبرها عن سلفه الذي ابتاع لنفسه عروساً انكليزية بذهب منهوب .

هل حقاً حدث ذلك ؟ هل حقاً أحبت تلك الانكليزية رجلاً كذلك الدون ؟ وهل كان ممكناً ان قلبه الشرس كان يحمل في طياته مشاعر رقيقة أغدق بها على تلك الفتاة التي اختطفها القراصنة من دفء بيتها لتباع في المزاد ؟ قصة بربرية حقاً ، ومناسبة تماماً لذوق الرجل الذي أخبرها اياها .

فجأة وفي تلك اللحظة تراجعت فانيسا الى الخلف ، بعيداً عن

حافة الشرفة حيث سقط كوب منسي على الطاولة محدثاً بسقوطه ضجة قوية . كانت متأكدة ان الصوت وصل الى اسماع الدون وأحست بالغيظ من نفسها . انه يعلم الآن انها كانت تقف على الشرفة تشاركه التمتع بجمال الليل .

وقفت لحظة جامدة في مكانها ، ثم استدارت مسرعة ودخلت غرفة نومها . عندما كانت آمنة في سريرها أحست بالرعشة تسري في جسمها وفي عنقها كأنها اصابع رقيقة ، ورأت وجهاً ينحني فوق وجهها . . . الحب جميل وقاسٍ . . . عميق كالبحر ، جاءها صوته .

اخيراً استسلمت للنوم وعندما استفاقت كان يخالجها شعور بأنها رأت احلاماً غريبة ، كلما حاولت تذكرها هربت منها في ضوء النهار المتسلل من باب الشرفة . الى جانبها كانت صينية عليها ابريق شاي وابريق حليب من الفضة الخالصة . سكبت فانيسا لنفسها كوباً من الشاي أخذت ترشفه بكسل ناعس وهي تحدق في صورة وجهها المنعكسة في المرآة المقابلة لسريرها . شعرها النحاسي اللون يتموج بجاذبية ، يرسم اطاراً مضيئاً لعينين خضراوين ما زال النعاس يداعبهما . أشرطة ثوب نومها كانت تنزلق فوق ذراعيها تاركة كتفها تتحدى أشعة شمس الصباح وهي تسترخي فوق مخدة زهرية اللون على سرير ملوكي .

تذكرت قصة الأميرة وحبّة الحمص وابتسمت لنفسها وهي تتناول قطعة من البسكويت من صحن على شكل ورقة . ما أطيب البسكويت المصنوع من جوز الهند الطيب ، المغطى بالكريما اللذيذة . كل صباح يحضر لها نوع مختلف من البسكويت مع الشاي . لكن بسكويت جوز الهند يقدم صباح يوم السبت دائماً .

بالطبع انه يوم السبت ! وتذكرت موعدها مع غاري السنغ في المساء .

أحست فانيسا بالتوتر يملأها . تعرف ان غاري سيعاند ويرفض اعادتها الى القلعة في العاشرة . لكنها تعلم جيداً ويحس قدري طالما شعرت به في القلعة . . . انها ستعود في العاشرة كما أصر الدون . هذا الرجل يحصل على ما يريد . ليس فقط لأنه متسلط ولا لأن اتخاذ القرارات وفرضها على الآخرين يعشعش في عظامه . لكن لأن لديه دائماً سبباً منطقياً يجعل رأيه كالدواء . . . تقبله لأنه يفيدك رغم مرارة مذاقه .

غاري في نظره نسخة عن جاك كونروي . وهي تعرف ان عمها الطيب كان سيرضخ في النهاية لو تطورت علاقتها بجاك الى الخطوبة . لكن الدون ليس عمها . لا يرضخ لأمر . الأشياء تجري كما يريد هو والا!

لمست فانيسا الكريما العالقة بأصابعها وانسلت خارجة من سريرها . أمر مغيظ بالفعل ان تجبر على الانصياع لارادة الرجل ، لكنها لا تستطيع المخاطرة . فقد يفقد غاري عمله ان تحدّت هي ارادة « ولي أمرها » بل بالأحرى « سيدها » . « عليك ابتياع ثياب جديدة يا آنسة كارول » . « تستطيعين انتقاء الصديق الذي تريدين يا آنسة كارول » . ماذا يضمر لها هذا الرجل ؟ أفلتت من فمها ضحكة عصبية . أتراه يخفي خطة لانتقاء زوج « مناسب » لها ؟ لا لن تسمح له بالتطاول الى هذا الحد !

فتحت فانيسا خزانة الثياب الكبيرة . كانت الخادمة قد رتبت فيها الملابس التي انتقتها منذ بضعة ايام . لم تجد الوقت الكافي من قبل لتأمّل هذه الملابس لذا أخذت تخرجها واحداً تلو الآخر وتلقي عليها

نظرة اعجاب . ملمس الشيفون كان جميلاً لكن ، ما هذا ؟ ولم تصدق فانيسا عينيها عندما رأت الفستان الحريري الذي رفضت شراءه . لا يمكن هذا . لقد رأت بعينيها الاثنتين صاحبة الصالون تعيد الثوب الى مكانه . وتذكرت كم أحبته وكم رغبت في شرائه لكن تقديرها لثمنه الباهظ منعها من اختياره .

وقفت فانيسا جامدة تمسك الثوب الحريري . لا بد ان باربرا الشقية أخبرت الدون عن الثوب وهو بدوره قام باتصال هاتفي مع صاحبة الصالون معطياً أوامره بارسال الفستان مع بقية الملابس . كم يحب هذا الرجل المتسلط فرض ارادته على الآخرين ! لكن لا . . . لن ترتدي الثوب . ستتركه يهترىء أولاً ! ووضعته في أبعد زاوية وراء الثياب كلها .

بغضب أغلقت فانيسا باب الخزانة . لم تعد تشعر بالرغبة في انتقاء الثوب الذي سترتديه هذا المساء عندما تخرج مع غاري . كانت الدموع المحرقة تتزاحم في عينيها الخضراوين . دموع الغضب والثورة . ليس مسلياً ابداً ان يتحكم هذا الرجل بها وبحياتها وان يتطفل على خصوصياتها بهذا الشكل السافر . انه بهذا يجعلها تكره أشياء كانت تحبها . وتكره نفسها لأنها تخاف الرجل .

لم تنطفىء جذوة غضبها الا تحت مياه الدوش المنعشة . رفعت وجهها الى اعلى وتركت المياه الباردة تغسل دموعها وتعيد اليها بعض الارتياح والاستعداد لمتابعة حياتها في القلعة .

كان صوت جرس الافطار يصل مسامعها عبر هواء الصباح المنعش . وجبة الفطور في المكان المخصص لها من الحديقة كانت دائماً وقتاً ممتعاً ومريحاً . خادم في اللباس الأبيض يحضر الكثير من الأطايب المنتقاة لتناسب ذوق سكان القصر .

لحظة أطلت فانيسا من الباب الجميل المصنوع من خشب الأرز والمنحوتة فوق سطحه زهور القرنفل الجميلة ، كانت دهشتها كبيرة لرؤية الدون جالساً الى طاولة الافطار . لم تكن هذه عادته . كان يخرج باكراً الى اعماله الكثيرة وقبل أن تنزل فانيسا ويابربرا لتناول الفطور . ربما شعر بالكسل هذا اليوم . انه أول الاسبوع . كان مستغرقاً في قراءة الجريدة الصباحية عندما أحس بقدومها . رفع بصره اليها مبتسماً . كم كان جذاباً بقميصه ذي الأكمام القصيرة وفتحة الصدر التي تظهر لون جلده الداكن . لم تقدر فانيسا ان تسيطر على خفقان قلبها المتسارع .

عند اقترابها أسرع الدون الى القيام والترحيب بها محدقاً في ثوبها البسيط بلون ورق الشجر الأخضر ، وبالعقد المصنوع من الأصداف الذي كان يزين عنقها الجميل . سألها ان كانت نامت جيداً الليلة الماضية وأجابته بحركة من رأسها ، تبعتها رجفة عندما لمست ذراعه السمراء ذراعها بحركة غير مقصودة . كان يمد يده ليقبض على عنكبوت سقط من أغصان الشجرة التي كانا يقفان تحتها .

عاد الدون الى مكانه ضاحكاً بشقاوة ثم قال :

ـ يظهر انها اصبحت عادة . انقاذي لك من الأحداث السوداء .

أجابته فانيسا بابتسامة وهي تتناول فوطة المائدة وتضعها على حضنها استعداداً لتناول الفطور . كانت تتمنى ان لا تتأخر يابربرا في الوصول . تناول الفطور مع الدون ، وحدهما ، لن يكون سهلاً عليها في حالتها الراهنة .

ـ تعوّدت على العناكب في أورداز . لا أحبها بالطبع . لكنها لا تجعلني أصرخ في طلب النجدة من أقرب رجل في المكان !

ـ طبعاً ، طبعاً . فأنت الفتاة الانكليزية التي تأبى حماية الرجل !

هيا يا عزيزتي ، أتريدين القهوة كالعادة أو كما ارجو ، ترغبين في كوب من الشوكولا الساخنة على الطريقة الاسبانية ؟

كانت ترغب في فنجان قهوة لكن نظرته المركزة على وجهها جعلتها تغيّر رأيها ، وقبل أن تقول أي شيء سمعته يقول :

ـ هيا ، قوليها ، قولي انك لا تستسيغين أي شيء اسباني خصوصاً انا الذي تتجسد فيه كل الشرور وكل القسوة !

تطلعت في عينيه الذكيتين الساخرتين وشعرت بأنه يرى أعمق اعماقها . يرى خوفها منه ويرى النفور الذي تشعر به تجاهه . وبسبب كثرة كلام باربرا استطاع ايضاً ان يرى انها ليست دائماً الانكليزية المتحفظة الباردة . عرف انها استمتعت بعناق الشاب كونروي وأطلّت من هناك على أرض الحب الموعودة .

ـ سأشرب الشوكولا الساخنة يا سيدي .

وأخذت تراقبه وهو يسكب الشراب الساخن من ابريق من الفضة . كم هو غريب هذا الرجل ! ترى هل استطاع أحد معرفة حقيقته . امه الجميلة مثلاً والتي تعيش في عزلة بعيداً عن الدنيا وصخبها . . . أو ربما جدته الدونا مانويلا ؟ هل تراه يظهر جانباً مختلفاً من طبعه الصعب للذين يحبهم ؟ . . . خصوصاً لوسيا مونتيز ؟

ـ أترغبين في بعض السمك أو ربما البيض ؟

اختارت البيض المقلي فقد كانت رائحته شهية ومنظره يسيل اللعاب . . . مقلي مع الفطر اللذيذ وشرائح البندورة الطازجة .

سكب لها ثم وضع القليل في صحنه ومد يده لتناول الملح . كانت فانيسا تمد يدها لأخذ الملح في نفس الوقت مما قلب المملحة وتناثرت ذرات الملح على غطاء الطاولة .

- يا الهي !

تمتم الدون الذي رأى فيما حدث فألاً سيئاً . وعلى طريقة الاسبان اخذ قبضة من الملح ورش منها على كتفه ثلاث مرات ثم قال :

- من منّا تسبّب فيما حدث ؟ أنت أم انا ؟

التقت عيناها بعينيه وعرفت عندئذ انه سمع الكوب يقع وينكسر على شرفتها الليلة الماضية . مد الدون يده الى صحن المعكرونة وعيناه مركزتان على وجه فانيسا ثم قال :

- هل أشعرك بالحرج ؟ غريب ذلك فنحن نعرف بعضنا منذ مدة طويلة .

- كنت صديق عمي يا سيدي . ثم انك كنت تنظر دائماً الي كفتاة طائشة . انا لست كذلك ويزعجني ان يرى فيّ الآخرون عكس حقيقتي .

- معك حق دون شك . ربما اخطأنا الحكم على بعضنا مما سبّب هذا التوتر بيننا .

- صحيح . وأشعر انك تنتظر مني ان احس وأتصرف كفتاة اسبانية ويزعجك كثيراً اخفاقي في ذلك .

- تماماً كما قال السيد السنغ . . . أنت فتاة انكليزية وغير معتادة ان يتحكم الغير في حياتك . أليس كذلك ؟ هيا، قولي يا آنستي . هل حقاً أجعل من باربرا سجينة بالرغم من ولعها بوصف نفسها حبيسة القلعة ؟ هل أكون ذلك التنين الذي تتصورون ؟ كوني صريحة يا عزيزتي .

ولمعت عيناه بابتسامة ماكرة .

- حسناً ، انك تبالغ في اضفاء الأهمية على فكرة خروجي مع غاري السنغ . . . اؤكد لك يا سيد اني لن أهرب مع هذا الرجل

رغم جاذبيته الطاغية .

- اذن تعتبرينه جذاباً . الا يبدأ الحب بالنظر ؟

ضحكت فانيسا متعجبة :

- الحب ! أوتظن يا سيدي اني جاهزة لأقع في حب أول شخص يغازلني على هذه الجزيرة ؟ يا الهي هل تفكر اني صغيرة الى هذا الحد ؟

- على الأقل عاطفياً لم تنضجي بعد .

وشغل نفسه باختيار بعض حبات العنب من صحن مليء بالفاكهة الشهية . حركاته كانت كسولة بتعمد ذكّرها بأمير اسطوري قيل انه اختطف عروساً وحملها الى مملكته البعيدة !

زجرت فانيسا نفسها فهذه ليست المرة الأولى التي تذهب فيها بعيداً بتصوراتها عن طريقة هذا الرجل في الحب .

- كيف وجدت البيض المقلي ؟ لذيذ ؟

أجابته باسمة وهي تتناول بعض الفاكهة :

- لذيذ جداً وخفيف .

- خفيف لأنه مقلي بزيت الزيتون . نحن الاسبان نستعمله دائماً في طعامنا . وهناك الكثير من الأمثال الشعبية التي تدور حول صفات وفوائد زيت الزيتون . ونذهب بعيداً في ذلك الى درجة تشبيه الزوجة المثالية بنعومة وسلاسة هذا الزيت .

ضحكت فانيسا من كل قلبها . بالطبع لا بد للزوجة الاسبانية ان تكون بسلاسة الزيت لتستطيع العيش مع الرجل الاسباني ذي الطبع الناري والعواطف الجياشة . خاصة وقد لاحظت فانيسا ان الرجل الاسباني يفوق امرأة بلده وسامة ، فتكون المرأة بهذا معرضة لكل مشاعر الغيرة وعواصفها ، فان لم تكن بسلاسة الزيت يصبح جو

البيت مشحوناً طوال الوقت .

لاحظ الدون انغماس فانيسا بأفكارها فابتسم قائلاً :

ـ في عينيك كلام يا آنسة كارول . ما الذي يشغل رأسك ؟ أتحسين بالعطف نحو المرأة الاسبانية ؟ قلت لك قبل الآن ان المرأة الاسبانية معززة مكرمة من قبل زوجها الى درجة لا تحلم بها نساء وطنك . الرجل الاسباني في أعماقه رجل بدائي يعتبر زوجته ملكاً له . أتفهمين ؟ . . . وهي تعرف ذلك وتعرف انه يعود اليها مهما حاد عن الطريق . والرجال ليسوا ملائكة والنساء الحقيقيات لا يردنهم كذلك . بالطبع لا انتظر من الانكليزي ذي الطبيعة الباردة المتحفظة ان يفهم ذلك أو أن يوافق عليه ، لكن تأكدي يا آنسة ان النار المأججة التي تسكن قلب العاشق المحب اللاتيني كفيلة بمحو كل المشاكل التي تخلقها العلاقات الزوجية .

كانت عينا فانيسا مسمرتين على وجه الدون الأسمر بارتباك . أحست بيديها ترتجفان . كيف تهرب من هذا الحديث الحميمي ؟ أين باربرا ، هل ما زالت نائمة ؟ ماذا سيقول أو سيفكر الدون ان هي اختلقت عذراً لمغادرة المكان ؟ سيعرف انها تهرب منه . حاولت السيطرة على انفعالاتها ثم قالت :

ـ كنت اظن الحب اللاتيني حباً رومانسياً لكن يظهر من كلامك انه حب بدون أجنحة .

ـ على العكس يا عزيزتي . قد تكون لغة الحب الاسباني أجمل اللغات وأكثرها اثارة . اظنك تلمّحين فقط الى اننا لا نتهرب من الخوض في الجانب الواقعي للحب . فللحب جماله الغريب . . . ماذا ؟ هل أحرجك كلامي ؟

اندفع الدم حاراً الى وجنتي فانيسا . لماذا يكلمها بهذه الطريقة ؟

لا لم يحرجها كلامه . ليست هي المرة الأولى التي تستمع بها الى مثل هذا الحديث . . . لكن صوته . . . صوت هذا الرجل الدافىء وهو يتحدث عن مسرات الحب الموعودة . . . هو الذي جعل جسمها يرتجف .

بذلت فانيسا جهداً كبيراً لتجيب الدون على سؤاله بلهجة طبيعية :

ـ لا يا سيدي ، لم يحرجني كلامك . انما اظن اني انكليزية للدرجة يصعب معها الاعتراف بأن الحب عاطفة حسية اكثر منها روحية .

وبابتسامة بطيئة تحمل صبر رجل ناضج تجاه اضطراب شابة قال الدون :

ـ الأمر لا يتعدى كونه كيمياء بدائية . فالجسم بوعيه الرغبة أسرع من العقل في قبول ما هو حتمي . هذا هو السبب وراء كل الأخطاء التي يرتكبها الشبان . ومن أجل تفادي هذه الأخطاء نراعي التقاليد في بلادنا فنساعد الفتاة في اختيار شريك عمرها . الرغبة قد تعمي الفتاة وتجعلها تستسلم لعناق الرجل الأول الذي يكشف لها أسرار الحب وأسرار نعومة جلدها وانحناءاته . تلك هي قوة المرأة . واكتشافها لسلطانها ، هذا السلطان الذي يركع أمامه أقوى رجل ، يجعلها تميل في البداية الى الصنف الضعيف من الرجال وكأنها بتفتحها لا تستطيع التمييز بين غريزة الأمومة وبين العشق . . . بين كونها اماً ، أو حبيبة . هل كلامي واضح يا آنسة ؟

اكثر وضوحاً من ضوء الشمس ! هذا ما قالته فانيسا لنفسها وهي ترتجف في مقعدها كورقة شجر . كانت الشمس تنعكس على شعرها الجميل كاللهب مظهرة جمال عنقها الأبيض . ولم يعد باستطاعتها تمالك نفسها فاندفعت قائلة :

ـ هل محاضرتك موجهة الي يا سيدي ؟ أتكون تحذيراً لي كي لا أترك غريزة الأمومة تتفجر اذا أخذني غاري السنغ بين ذراعيه ؟ هل أبدو بمظهر المحروم من الحب المتعطش لأول قطرة ؟ لم أكن اظن ذلك !

ـ الكثيرون متعطشون للحب . لكن معظم النساء يخلطن ما وهبهن الله من الحكمة ببعض الطيش الذي يسمونه تحرراً . وأنت يا آنسة وفي هذا الظرف بالذات حيث يغمرك شعور بالوحدة والخوف قد تندفعين باتجاه هذا الشاب ظناً منك انك وجدت الحب .

ـ أنت تنسى اني أحب جاك كونروي يا سيدي . اما اخبرك عمي اني كنت اكتب لجاك باستمرار وأراه كلما زار اورداز ؟ انت بنفسك رأيت ذلك ألا تذكر ؟

تراكضت الكلمات من فم فانيسا دون ارادة منها أو تفكير . تطلع اليها الدون طويلاً ، وببرودة قاسية لا تخلو من بعض الاحتقار أجابها :

ـ رأيت فتاة صغيرة مع صبي فاشل وضعيف . لكن ان كنت تظنين ذلك حباً فليكن . . . قد يحميك ذلك من التهور مع غاري السنغ هذا .

طار صواب فانيسا وانتفضت واقفة بغضب لا يثيره فيها غير هذا الرجل :

ـ كيف تجرؤ ؟ لا تتصور ايها السيد انه لمجرد كونك زعيم لويندا تستطيع ان تتكلم وان تتصرف كما يحلو لك . يا لك من مغرور متعجرف شاء سوء حظي أن ألتقي به .

كان الدون قد انتصب واقفاً هو الآخر وبخطوات واسعة أضحى بجانبها ممسكاً ذراعيها المكشوفتين بكل ما في يديه من قوة . كانت

عيناه تلمعان بغضب شديد كغضب عاصفة سوداء .

ـ وأنت يا آنسة فانيسا كارول ، الفتاة التي لا تستطيع ضبط اعصابها والتي شاء سوء طالعي ان التقي بها . من الأفضل لك السيطرة على هذه الانفعالات الملتهبة ، فهي لا تناسبك وتفضح قلة نضجك .

كانت اصابعه الآن تشد على كتفيها بقوة مؤلمة . ازدادت ضربات قلبها ونفر الدم الى وجهها .

ـ يؤسفني ان لا استطيع ارضاء غرورك وغريزة التفوق التي تسيطر عليك . ويؤسفني اني لا استطيع ان اركع امام رجولتك الطاغية وقصرك وثروتك . انا لا املك ان اكون الآنسة التي تخضع ، واعرف تماماً اني لا املك اياً من الصفات التي تعجبك ولا يهمني ذلك في شيء .

ـ الجملة الأخيرة تصدر عن عدم نضج وعناد وتعني عادة العكس تماماً . اتريدين أن أقول اني معجب بشعرك وعينيك . . . وبنعومة جلدك ؟ هل أزعجك انني لم أتمشَّ معك في ضوء القمر وأعانقك ؟

قال هذا وهو يسرّح عينيه على عنقها العاجي . كانت فانيسا تحدق به غير مصدقة تلك الصورة . هذا الرجل يعانقها ؟ رفاييل دوميريك يعانقها ! همس صوت ساخر في داخلها ، يكفي ليجعل أية امرأة تعيسة مع أي رجل يأتي بعده !

ـ هيا يا آنسة كارول ! عهدي بك ألاّ تعدمي شيئاً تقولينه في الدفاع عن استقلالية تفكيرك . لم تنظرين اليّ هكذا ؟ وكأن العناق أمر لا أعرفه ولا استمتع به . أتظنينني من صخر ؟ لا املك اشواقاً كغيري من الرجال ؟

كانت يداه الدافئتان قد خففتا قليلاً من الضغط على ذراعيها ،

وكان وجهه قريباً من وجهها . لكن ما جعل قلبها يغوص في داخلها هو رجفة شفتيه التي قالت لها الكثير عن الرجل وأكثر مما كانت كلماته تقول . في تلك اللحظة أحست فانيسا ان قناع الرجل المتسلط ، الرجل السيد قد بدأ يسقط ليظهر خلفه الرجل العاطفي الذي تمتع يوماً بعناق امرأة في ضوء القمر هامساً في اذنيها كلمات الحب الناعمة . . .

وأحست فانيسا بأن عينيها قد شدّتا الى عينيه وتعلقتا بهما .

ـ لا . . . لا اظنك من حجر . لقد أنقذت حياتي في أورداز . وهذا ما لا يفعله رجل بلا أحاسيس . وأيضاً ليس سراً انك والسـ . . .

سكتت فانيسا والتقطت انفاسها . يجب أن لا تتدخل في أمور الدون الشخصية .

ـ كنت تقولين . . . أكملي .

حاول الدون تشجيعها على الكلام وبسمة خبيثة تلمع في عينيه .

ـ كنت تريدين أن تقولي انني مقدم على الزواج ؟

اومأت فانيسا برأسها بالايجاب .

ـ وكيف ترين الأمر ، رومانسياً ؟

وبنعومة لا تصدق لمس شعرها كما فعل على القارب في ذلك اليوم ، ورد خصلة كانت تغطي عينها وقال :

ـ على الرغم من كل الكلام الفارغ عن حبك للشاب كونروي فالحب الحقيقي يجب أن يحمل سحراً اكبر وجمالاً اكثر لفتاة مثلك .

ـ لفتاة مثلي ، لكن ليس لرجل مثلك .

خرجت الكلمات من فمها دون ارادة منها . تلك اللمسة الرقيقة جعلت الرعشة تسري في عظامها ، جعلتها تحس بمرارة تخالطها

حلاوة ، تماماً كما شعرت يوم لمسها للمرة الأولى بعد ان انقذها من اورداز .

ـ الحب الحقيقي الذي نتحدث عنه يا سيدي يتعارض مع ايمانك بالزواج المرتّب والمدروس .

ـ ما اؤمن به يا آنسة وما قد أفعله أمران تتحكم بهما الصدفة ، تماماً كالحشرة التي لا بد لها من الدوران حول اللهب ، قد تحترق وقد تنجو . تنظرين الي ولا ترين سوى سيد القلعة وسيد الجزيرة وما انا سوى رجل كباقي الرجال . وكباقي الرجال لا مهرب لي من الاقتراب من نيران الحب ، ان احرقني شعرت بالوجع كأي رجل آخر .

ـ لا أظنك ستحترق .

قالتها فانيسا وهي تتذكر نظرات الوله والاعجاب تملأ عيني السيدة لوسيا مونتيز . هذه المرأة الأنيقة أرملة وكما قالت باربرا لفانيسا ، ليس الدون بالرجل الذي يختار عن وعي زوجة كانت لغيره ذات يوم . لكن الحب لم يكن يوماً يحترم تقاليد ومعتقدات الناس . الحب يغزو ولا يطلب اذناً بالدخول ، يغزو اكثر القلاع منعة ويصدر أوامره التي لا يستطيع أحد تجاوزها .

كانت اعصاب فانيسا تضج برغبة التحرر من اصابع الدون الحديدية التي ما زالت تضغط على ذراعيها وكأن الدون أحس برغبتها الصامتة فأرخى اصابعه عن جسمها اللدن وبدأ يطوي جريدته الصباحية ثم قرع الجرس كي يأتي الخادم ويأخذ ما تبقى من طعام الفطور .

ـ تأخرت باربرا عن موعد الفطور .

قالت فانيسا ذلك لتكسر الصمت الذي خيّم بينهما . وكأن الطيور

على اغصانها صمتت ايضاً . رفعت فانيسا نظرها الى اعلى . تغيّر لون السماء الى الرمادي المعتم وقد تمطر .

ـ آه ، نسيت أن أخبرك ان باربرا كانت متوعكة بعض الشيء ليلة امس . ربما كان السبب شيئاً أكلته . اهتمت بها كونسيبسيون طوال الليل وهي الآن نائمة . هذه الطفلة تبالغ في كل شيء وترهق نفسها . لا داع للقلق يا آنسة كارول ، ستكون باربرا على احسن ما يرام بعد بضع ساعات من النوم .

اظهرت فانيسا أسفها للخبر وتذكرت انها لاحظت تكوّر وجه باربرا الليلة الماضية ، لكنها في حينها ظنت ان الأمر عائد للعب الورق مع راي الفاداس الذي حاول استفزازها في حضور الدون .

ـ آنسة كارول . . .

أعادها صوت الدون من أفكارها .

ـ نعم سيدي .

ـ لست بأعمى كما تعرفين .

ـ لا افهم قصدك .

ـ يظهر ان حمى الحب تضرب الجزيرة هذه الأيام . وباربرا تتصور انها وجدت فارس احلامها في قريبي راي ، أليس الأمر كذلك ؟

اندفع اللون الى وجنتي فانيسا . . . انه يعرف اذن ؟

ـ كنت اظنها تعرفت على شاب من الجزيرة ووقعت في هواه ، لكن حرصك ان تكوني بصحبتها أثناء وجود راي دفع بي الى الشك في أمرهما .

ـ لا اعرف ما سأقول يا سيدي . فقط استطيع ان اؤكد لك ان الأمر في غاية البراءة .

ـ لن يغير هذا في الأمر شيئاً . سأقوم بترتيب عودته الى اسبانيا .

لا تخبري باربرا بذلك .

هزت فانيسا رأسها بالموافقة ثم سارا باتجاه الداخل . عندما وصلا وضع الدون يده على كتف فانيسا وقال :

ـ باربرا الآن نائمة وأنت حرة ، ما رأيك لو قضيت ساعة في زيارة جدتي ؟ ستسر بك كثيراً . طالما عاتبتني وقالت انه لم تتح لها الفرصة للتعرف اليك اكثر .

كانت فانيسا تشعر بالرهبة في حضور الدونا مانويلا جدة الدون الذي قال لها مبتسماً ابتسامته الجذابة :

ـ لا تخشي شيئاً فمظهر جدتي الخارجي قد يوحي بالتكبر لكنك ستكتشفين فيها الانسانة التي كغيرها من النساء تسرّ بجلسة ثرثرة . اخبريها عن الثياب الجديدة التي ابتعتها .

عند ذكر الدون للثياب الجديدة تذكرت فانيسا بانزعاج ثوب السهرة الأخضر الذي وجدته في خزانة ثيابها بأمر مباشر من هذا الرجل . لم تحاول اخفاء تعبير الانزعاج الذي ارتسم على وجهها ، ولاحظته عينا الدون المتنبهتان دائماً . ولم تشعر الا وأصابع الدون الدافئة تمسك معصمها وصوته العميق يقول :

ـ ألا يمكنني فعل شيء يرضيك ؟ وهل تريدينني ان اصدق انك تفضلين ارتداء الثياب التي لا تناسبك بدل ثوب كهذا الذي ترتدينه الآن ؟ الأخضر الفاتح لون جذاب ويناسب لونك ولون شعرك . ام هل ترى لون شعرك الناري هو المسؤول عن مزاجك الحاد ؟

وأطلق ضحكة عالية وعميقة .

هذا الرجل ، هذا الرجل يسلب كل سلاح عندما يريد . وعندما التفت عينا فانيسا بعينيه الضاحكتين لم تتمالك نفسها عن الابتسام .

ـ أمي كانت ايرلندية يا سيدي . ربما أخذت الشعر الأحمر والمزاج

الحاد عنها .

- ونبرة صوتك ايضاً ربما ؟ امك توفيت وأنت ما زلت في المدرسة كما فهمت ؟

اومأت فانيسا برأسها والألم في عينيها .

- كان والداي في طريقهما الى حفلة عيد الميلاد في المدرسة التي كنت اعيش فيها . انزلقت بهما السيارة فوق الثلج الذي كان يغطي الطرقات وقتها عندما كانا يحاولان عبور احد الجسور وقتل كلاهما في لحظة .

- يا صغيرتي المسكينة . لا بد ان الحادث كان صدمة أليمة .

ومرت سحابة عطف لطيفة في عيني الدون الذي أكمل قائلاً :

- ومنذ موت عمك ، وكأن الصدمة الثانية ، وجدت حاجزاً يحول بينك وبين الحب من جديد . . . طبعاً لا أقصد بكلامي الشاب كونروي . دعيني الآن اوصلك الى الجناح الذي تعيش فيه جدتي .

في طريقهما الى هناك كانت فانيسا تفكر باصرار الرجل الاسباني على التحدث عن الحب . هل تراه يعتقد ان المرأة خلقت فقط من اجل الحب . . . من اجل ان تشعر به وان تعطيه ؟ ان تكرس كل حياتها وكل وجودها وطاقتها له ؟ كانت تود لو تناقشه في الموضوع لكن نظرة سريعة الى وجهه جعلتها تمتنع عن ذلك . كان الدون قد ذهب بعيداً في احدى تلك اللحظات الصامتة التي ينزل فيها الى أعماق نفسه ويغلق الباب على من حوله .

صعدا السلم العريض جنباً الى جنب يلفهما صمت مطبق . وكالعادة ذهبت فانيسا بعيداً بتصوراتها . هذا الدرج الفخم بحافتيه المرصعتين وخشبه الجميل ، كم يصلح لأن تنزل عليه امرأة ذات جمال اخّاذ مرتدية ثوباً من الحرير اللامع تحمل بيدها مروحة أنيقة

تحركها بكل أنوثة ودلع ، وتضع في شعرها مشطاً اسبانياً مرصّعاً بالجواهر .

جناح الدونا مانويلا يقع في الطابق الأول وهذه هي المرة الأولى التي تدخل بها فانيسا جناح السيدة العجوز هذا . بحركة رشيقة فتح الدون رفاييل باباً على مصراعيه ودخلا . شهقت فانيسا للمنظر الرائع الذي وقعت عليه عيناها . . . حديقة زهور وفي وسطها بركة صغيرة مليئة بالأسماك تتجدد مياهها من نافورة جميلة على شكل صبي يركب سمكة دولفين . اقتربت فانيسا لتمتع نفسها بمنظر الأسماك الصغيرة اللطيفة ، وظهرت امرأة ترتدي ثوباً اسود .

المرأة هي لويزا وصيفة السيدة العجوز ومرافقتها جاءت تدعو الزائرة الى الدخول حيث تنتظرها الجدة . ازداد اضطراب فانيسا لكل هذه الترتيبات الرسمية وتسارعت ضربات قلبها وهي تدخل الصالة الكبيرة . كل ما في هذه الصالة كان ينطق بالاسبانية ، الديكور والأثاث والصور الكبيرة المعلقة على الجدران الخشبية والتي تمثل تسلسل رجال ونساء عائلة الدوميريك لاجيال خلت . تطلعت فانيسا ملياً الى تلك الملامح الارستقراطية التي تنم عن الطبع الاسباني بكل ما فيه من اعتداد وحدّة .

أجالت بصرها في انحاء الغرفة الكبيرة ، الشمعدانات المنحوتة باليد ، الطاولات المرصعة ، المساند الياقوتية اللون ، كل ما في المكان يذكّر بالعهود القديمة وتضفي عليه رائحة البخور المحترق نكهة ساحرة وغريبة .

أحست فانيسا بكل هذا وكأنه مقدمة معبّرة قبل الوصول الى السيدة الصغيرة الحجم التي كانت تجلس بكل راحة وكبرياء في مقعد وثير ، مادة قدميها النحيلتين بكل اناقة على مقعد صغير امامها .

جلد وجهها بلون العاج يغطي عظامها الصغيرة . عيناها سوداوان كالليل تحدقان في فانيسا بلا تردد . شعرها بلون الفضة يغطيه منديل من الدانتيل الأسود . وعلى كتفيها ينسدل بأناقة مشلح من الدانتيل المنقط . من اذنيها يتدلى قرطان من العاج ، وعلى اصابعها تلمع خواتم الماس والعقيق .

حيا الدون جدته طابعاً على اصابعها النحيلة قبلة دافئة . ردّت الدونا التحية بأن رفعت اصابعها المثقلة بالخواتم وربتت على خده الداكن بكل حنو ومحبة . نظرة واحدة باتجاه الاثنين كانت تكفي لتجعل فانيسا تفهم انه ، بالنسبة الى هذه المرأة العجوز ، الشمس لا تشرق إلا في وجود حفيدها . تعرف فانيسا ان من التقاليد الأصيلة عند الاسبان الاعتناء والاهتمام بأفراد العائلة الكبار في السن . الأمر بالنسبة اليهم يتعلق بالشرف كما يتعلق بالمحبة .

طوال الوقت لم ترفع الدونا مانويلا نظرها الفاحص عن فانيسا ، والآن وجهت اليها تحية الصباح باللغة الاسبانية وطلبت منها ان تجلس قبالتها . وعند ملاحظتها اضطراب فانيسا ابتسمت للدون ببعض الخبث ثم قالت :

ـ ماذا يا رفاييل ، أتظنني أخيف الآنسة الانكليزية ؟

ثم وجهت كلامها الى فانيسا :

ـ هل أخيفك يا عزيزتي ؟ ضعف نظري هو المسؤول عن تحديقي بك بهذه الطريقة الوقحة . كم أنت جميلة يا آنسة ، اليس الأمر كذلك يا رفاييل ؟

ازداد اضطراب فانيسا واندفع اللون حاراً الى وجهها بينما نظر الدون باتجاهها بكل تعمد وبطء ثم قال :

ـ نعم يا جدتي . الانكليزيات عادة جميلات . ألم يكن الأمر

يشغل بالك عندما ذهبت الى انكلترا ، الا تذكرين كيف حذرتني وطلبت مني ألّا انسى ان ولائي يبقى دائماً لاسبانيا في كل الأمور ؟

ـ اذكر ذلك جيداً يا رفاييل . لكنك الآن اكثر نضجاً . كنت في السابق اخشى ان تتسرع في أمر الزواج والآن عرفت كم كنت مخطئة . ما يقلقني الآن هو انك اصبحت في الخامسة والثلاثين من عمرك ولم تجعل مني جدة كبرى لأولادك .

ضحك الدون بمرح وقال :

ـ انت ككل النساء يا جدتي تريدين ان تجري الأمور على هواك .

ـ ليس الأمر كذلك . ما يشغل بالي اني لن اتمكن من ملاعبة طفلك وانا على حافة قبري .

معها حق ! قالت فانيسا لنفسها مرتاحة لأن الحديث انعطف عنها الى مجال آخر . لكن الأمر مضحك فهي لا تستطيع ان تتخيل لوسيا ، السيدة الأنيقة تؤرجح طفلاً على ركبتيها .

قالت الدونا باصرار :

ـ انت تفكر بالأمر يا رفاييل ؟

ـ بالطبع يا جدتي الملحاحة . اعدك اني لن اترك اسم الدوميريك يختفي من الوجود لكن لا تنسي ايتها العزيزة اني قد اصبح اباً لعشر بنات وقد لا ارزق بصبي .

وانفجر ضاحكاً بشقاوة .

رفعت الجدة اصابعها النحيلة الى صدرها بحركة عصبية وقالت :

ـ انت صبي مزعج . وفّر على جدتك العجوز مثل هذا الهم . لا . . . سترزق صبياً قوياً جميلاً . كل رجال الدوميريك كان لهم هذا . لكن أسرع يا حبيبي .

هز الدون رأسه بمحبة وحنان وقال لجدته :

ـ تتكلمين وكأنك ذاهبة عن قريب . لا زال امامك متسع من الوقت يا جدتي العزيزة لحياة طويلة وبكل ازعاج اطفالي . لا تخشي شيئاً . والآن علي ان اذهب ، اعمالي تنتظرني .

ـ غداً عندما تكون لك زوجة لن تركض وراء اعمالك كل هذا الركض . قالوا لي انك تقضي ساعات الراحة تعمل بمكتبك . لن يحدث هذا في المستقبل . ستقضي تلك الساعات في السرير الزوجي الدافىء .

ـ يا لك من عجوز شيطانة ! لا تقومي باطلاع الآنسة كارول على افكارك الطليعية هذه . لديها الكثير منها على كل حال ولا حاجة بها الى المزيد .

ـ هيا اذهب ايها الشقي وان احببت ان اخبر الآنسة كارول أي شيء عن غرور الرجل وعن كيفية تدجينه ، سأفعل .

ـ خسارتي كبيرة اذ لن أبقى واستمع الى احاديثك الشيقة يا جدتي . وأنت يا آنسة كارول ستعرفين اسراراً رهيبة منها ، ففي ايامها كانت الجدة كما يقولون رائعة الجمال يحوم أفضل الرجال حولها كالفراشات حول النور .

وغمز لفانيسا بعينيه باسماً ثم استدار وخرج من الصالة .

ـ سنتناول بعض الشاي الآن يا آنسة كارول .

قالت الدونا مانويلا هذا ثم تناولت جرساً صغيراً قرعته منادية لويزا التي جاءت مسرعة وتلقت أوامر السيدة باحضار الشاي والكعك . في انتظار ذلك اخذت الدونا تطرح على فانيسا اسئلة تتعلق بانكلترا . وبرقة فائقة قادت الحديث الى عم فانيسا ومزرعته قائلة :

ـ لا يجب ان ندفن الأشياء المحزنة في أعماق انفسنا . الحياة مليئة بباقات الفرح وأكداس الحزن . الحزن والفرح يا عزيزتي كلاهما الحياة وكلاهما يغني النفس أو يجب ان يغنيها . وأنت عشت سنوات جميلة مع عمك الطيب كما علمت ، صحيح ؟

ـ نعم . كانت سنوات طيبة .

وأحست فانيسا بحرارة الذكريات وحلاوتها . كل هذا اصبح الآن في الماضي .

ـ كان رفاييل يحدثني كثيراً عن طيبته . . . آه ها هو الشاي . أنا مدمنة على شرب الشاي لكن عندما يكون رفاييل هنا من اجل لعبة شطرنج يفضّل القهوة عليه .

ابتسمت فانيسا للعجوز ولاحظت طاولة صغيرة عليها حجارة شطرنج مصنوعة من العاج بدقة ومهارة . ومن طريقة صف القطع عرفت فانيسا ان اللعبة لم تنته .

لاحظت الدونا اتجاه نظر فانيسا وقالت :

ـ كم اتعجب من الصبر الذي يظهره رفاييل في اللعب معي . فهو كما تعلمين رجل مليء بالحيوية والنشاط . احياناً يقوم بتحريك حجر بطريقة متسرعة ، وأحياناً اخرى يأخذ وقته ويحشر جدته المسكينة في زاوية . . . هذا تعبير تستعمله باربرا . هذه الطفلة ، هل تسبب لك المشاكل ؟

ـ ابداً يا دونا مانويلا . انا احبها كثيراً .

تناولت فانيسا فنجان الشاي من يد الدونا شاكرة ، وفضلت ان تضع فيه قطعة من الليمون الحامض عوضاً عن الحليب . أرضى ذلك الدونا مانويلا التي ابتسمت لفانيسا والتقت عينا المرأة العجوز بعيني الفتاة الشابة وتبادلتا ابتسامة دافئة تشير الى رغبة مشتركة في

الصداقة والتفاهم .

ـ كان علينا أن نلتقي للثرثرة قبل الآن . امرأتان ، ابريق من الشاي ورجل نحكي عنه . انها احدى باقات الفرح التي حدثتك عنها قبل قليل . أتوافقين ؟

ـ بالطبع يا سيدتي .

ورشفت فانيسا بعض الشاي اللذيذ . رجل نحكي عنه ! من غيره ؟ الرجل الرشيق الداكن اللون الذي ترك الغرفة منذ عشر دقائق !

٧- هذا الرجل دائماً على حق . كم تتمنى لو تضع يدها يوماً على نقطة ضعفه! ما أصغرها امامه . ومع الهدوء الغريب الذي يسبق العاصفة، أحست فانيسا برغبة فرحة في الخضوع.

كانت صينية الشاي قد احضرت وعليها سلّة من الفضة مليئة بقطع الحلوى، والمعجنات المحشوة بالكريما الطازجة الى جانب صحون صغيرة فيها أنواع المربّى المزينة بحبّات المشمش والعنب.

ـ أحب الحلوى كثيراً تماماً كعزيزي رفاييل. ماذا؟ ألن تأكلي؟ لخافين من السمنة؟

ابتسمت فانيسا واجابت:

ـ لحسن حظي ازدياد الوزن ليس مشكلة عندي، لكنني تناولت الفطور منذ نصف ساعة فقط.

ـ لم تكن السمنة مشكلتي ابداً مع ان نساء بلدي يعانين منها كثيراً. في صباهنّ لا أجمل من قدودهن، لكن مع مرور السنوات ومع

www.elromancia.com

الانجاب تأخذ اجسامهن بالامتلاء والاستدارة. اما الوحوش البشرية التي هي رجال بلدي، فتحافظ على رشاقتها وتناسق أجسامها طويلاً، هذه الوحوش العنيدة الوسيمة!

لمعت عينا الدونا بفخر وحنان فأجابتها فانيسا التي بدأت ترتاح كثيراً في حضرة هذه المرأة العجوز، بضحكة صاخبة مرحة.

ـ هل تجدين الرجل اللاتيني وسيماً يا طفلتي؟

ـ نعم، تقاطيع وجهه متناسبة وفيها جاذبية، لكني اعترف ان الرجل اللاتيني يشعرني بالهيبة والخوف بالمقارنة مع الرجل الانكليزي.

ـ أظنك تتكلمين بالتحديد عن حفيدي. انه رجل قوي وعاطفي، ولكي يكون سعيداً يحتاج الى امرأة ذات قلب دافىء ومتفهم. ابني خوان، والد رفاييل كان كذلك وحسن حظه دفع به الى احضان امرأة استطاعت ان تفهم أمزجته المتغيرة فعاشا في سعادة عامرة، وهذا ما أريده لرفاييل.

صمتت الدونا مانويلا وشردت بافكارها للحظات ثم قالت:

ـ أخبريني يا آنسة كارول، ما رأيك بالسيدة مونتيز؟

تسارعت ضربات قلب فانيسا لهذا السؤال المفاجىء فالسيدة مونتيز كما يبدو، مرشحة للزواج من الدون رفاييل، وهي، فانيسا، ليست سوى مرافقة لابنته ومن غير اللائق ان تعلّق على اختياره لشريكة حياته. باربرا لم تكن تحب الأرملة الانيقة وكانت تصرح بذلك لفانيسا التي كانت تتحاشى ابداء رأيها بالموضوع. فباربرا خانت ثقتها عندما باحت بما اخبرتها اياه عن جاك كونروي في حضور الدون.

لاحظت الدونا مانويلا تردّد فانيسا في الاجابة فربتت على ركبتها

بمسكة مروحتها وقالت لها مشجعة:

ـ هيا يا آنسة، بامكانك التحدث الي بصراحة فانا امرأة وصلت سن النضج منذ زمن بعيد وتستطيع ان تكتم سرّاً. رفاييل اسباني حتى العظم وعلى زوجته ان تكون امرأة حقيقية. لا أقصد ان تكون كلها أنوثة فقط بل ان تكون ذات قلب دافىء محب وان لا تكون أنانية. ربما كانت السيدة مونتيز مثالية كمضيفة، فهي محدّثة لبقة وجذابة وانيقة ايضاً، لكن الزواج السعيد هو الذي يبنى خلف كل هذه الستارات، وشخصياً لا اعتقد ان السيدة مونتيز تستطيع ان تقدح الشرر من الحجر الأصلي الذي هو رفاييل. آه طبعاً اعرف ان هناك قسوة الحجر في طبع رفاييل ومن أجل هذا اريده ان يتزوج من المرأة المناسبة. وان لم يفعل ذلك، فلا هو ولا زوجته سيتمكنان من الاستمتاع بالسعادة التي اعرف انه قادر على منحها. اخبريني بكل صراحة يا عزيزتي، هل تجدين حفيدي وهذه المرأة مناسبين لبعضهما؟

قالت فانيسا ببعض التردد:

ـ اجل، اظنهما متناسبين...

ـ لكن أتحبّينها؟ أتظنين ان لها قلباً دافئاً؟

ـ لا يستطيع الانسان ان يحكم على المظاهر يا دونا مانويلا. لكني متأكدة ان باستطاعة الشخص نفسه ان يحكم ان كان قد اختار امرأة ذات قلب دافىء أم لا؟

ـ ليتني استطيع الموافقة على ما تقولين لكن الرجال يا عزيزتي يُخدعون بسهولة وأية امرأة تصمم على نيل زوج غني ووسيم كرفاييل تستطيع التظاهر بكل الصفات التي لا تملكها. ليكن الله في عوننا ان كانت لوسيا مونتيز تقوم بتمثيل دور للحصول على رفاييل. وقد

لاحظت في المدة الاخيرة ان حفيدي يتصرف تصرفات غريبة... تماماً كرجل عاشق. كثيراً ما يتمشى وحده في الحديقة اثناء الساعات المتأخرة من الليل. من يدري ربما أوقعته هذه المرأة في حبها، فما هو سوى بشر وفي أواسط الثلاثينيات من عمره، ويعرف ان الوقت قد حان للتفكير جدياً بالزواج. والمثل القديم يقول ليس غير الأولياء يستطيعون العيش وحدهم.

توقفت الدونا عن الكلام وابتسمت لفانيسا. كانت عيناها السوداوان تنظران اليها بكل مباشرة وحدّة. عيناها كعيني حفيدها تغوصان في الأعماق باحثتين عن الحقيقة التي تكمن دائماً وراء كل اللياقات الاجتماعية والاحاديث السطحية. ومن ذلك المنطلق قالت الدونا بكل صراحة:

ـ انت فتاة طيبة يا عزيزتي لتستمعي بكل صبر الى ثرثرة عجوز مثلي. امر سعادة حفيدي قد لا يعنيك كثيراً، أليس كذلك؟

فوجئت فانيسا بالسؤال المباشر. كان قد مرّ ببالها في السابق ان زواج الدون من السيدة مونتيز قد يعني انتهاء وجودها هي في القلعة، لكن لم يسبق لها ان فكرت جدياً بسعادة الدون ان هو تزوج من تلك الأرملة. الدون ليس ولداً صغيراً ليتوقع النشوة الكبرى من زواج كهذا. لا بد انه يعرف تماماً ما هو مقدم عليه، لكن... وهنا طافت ببال فانيسا صورة الدون الوسيم في تلك الحديقة قرب البحر... ترى أيمكن ان يكون كل ما يطلبه هذا الرجل من المرأة التي ستصبح زوجته هو الأناقة والجاذبية الاجتماعية؟

انتفضت فانيسا، منتبهة الى ان الدونا بانتظار الجواب على سؤالها:

ـ انا احترم الدون رفاييل وأدين له بحياتي.

ـ هذا كل شيء؟ لا مشاعر خاصة نحوه؟

ـ لا يمكن ان يكون هناك اكثر من هذا... من الطرفين!

واتسعت عينا فانيسا الخضراوان بالدهشة من هذه الفكرة غير المعقولة.

ضحكت الدونا وقالت:

ـ تتكلمين بكل تأكيد، الجاذبية بين اي رجل وأية امرأة ليست مستحيلة كما تعلمين. لماذا اذن تشعرين ان حفيدي لا يمكن ان ينظر اليك الا بعيني الحارس والمستخدم؟

ـ لا... لا اعرف.

وحاولت فانيسا تجنّب النظر في عيني الدونا. كانت تشعر بالاضطراب، وأزعجها شعورها هذا. لماذا لا تستطيع ان تتصرف بسهولة؟ لماذا لا تضحك من الفكرة وتبعدها باشارة مستخفّة من يدها؟

ـ سامحيني يا صغيرتي لقد أحرجتك. الانكليز لا يحبون تعرية اعماقهم امام الآخرين، اليس كذلك؟

ـ نحن نميل الى التحفظ.

ـ ومع ذلك فالفتيات الانكليزيات يتمتعن بحرية تفوق كل ما تتمتع به فتيات البلدان الاخرى. في الأمر تناقض، لا؟ انتم ترفعون سياجاً حول العواطف، بينما نحن نرفع سياجاً من التقاليد حول الاناء الذي يحوي تلك العواطف... أعني الفتاة. الا تجرّ الحرية التي تعطى للشباب في بلادكم الى المشاكل في معظم الأحيان؟

ـ معك حق. ولكن اعتقد أيضاً ان كبت الشباب يدفعهم أكثر واكثر الى ارتكاب الاخطاء سراً.

ـ أظنك تقصدين باربرا. لقد أخبرني الدون عن تعلقها بقريبه

راي. واعلمي يا عزيزتي اننا لن نمانع في زواج كهذا لو كان راي من النوع الذي يستطيع تحمّل مسؤولية بناء عائلة. الدون يحب باربرا لدرجة لا يستطيع معها تركها تتعذب في حياتها الزوجية، كان رفاييل حكيماً جداً عندما اختارك مرافقة لباربرا وكنت أنت لطيفة بقبولك هذا.

ـ انا استمتع كثيراً بصحبة باربرا. واعتبرها اختاً لي اذ طالما تمنّيت ان تكون لي أخت.

ـ اذن انت تؤمنين بضرورة انجاب اكثر من طفل واحد؟ عظيم... عظيم جداً. تعجبيني يا عزيزتي ومن الآن سأناديك باسمك الاول فانيسا، كم هو جميل ويناسبك.

وربتت الدونا بيدها النحيلة على خد فانيسا بحنان واضافت:

ـ قيل لي ان لك صديقاً هنا. أميركي شاب؟

دهشت فانيسا لهذه الملاحظة، فالدونا رغم عزلتها الظاهرة مطلعة تماماً على كل ما يدور حولها في القلعة. ربما كانت لويزا، مرافقتها، هي التي تقوم باطلاعها على ما يجري، او ربما... وخفق قلب فانيسا بعنف، ربما كان الدون نفسه هو الذي أخبرها عن غاري ألسنغ! يا إلهي، هل حقاً جلس مع جدته وتناقشا في علاقتها مع غاري؟

لا بد ان الدونا الذكية لاحظت ان حديثاً ما يدور في نفس فانيسا فاسرعت قائلة:

ـ لا تظني يا عزيزتي اننا نعارض ان يكون لك اصدقاء هنا. كل ما في الأمر اننا نعرف الوضع الصعب الذي تمرّين به ولا نريد لك التسرع في موضوع الزواج هرباً من الوحدة والحزن. انت تعرفين دون شك اندفاع الاميركيين للزواج لسهولة الطلاق في بلادهم.

ـ الزواج؟ يا إلهي بالكاد تعارفنا غاري وأنا، الزواج ليس أمراً

مطروحاً بيننا.

ـ اعرف ذلك يا عزيزتي، لكن الوحدة التي تعيشينها قد تدفع بك الى مثل هذا التسرع. وربما كان تشدّد رفاييل معك في هذا الموضوع عائداً الى اهتمامه بك كقريبة صديق وكشخص...

وتوقفت الدونا عن اكمال جملتها عندما لاحظت التعبير على وجه فانيسا ثم تابعت:

ـ ما نظرة الشك هذه في عينيك يا فانيسا؟ ما الذي قاله او فعله رفاييل ليدفع بك الى الظن بأنه يعاديك؟

ـ الشعور بالعداء أمر متبادل...

ـ أنت لا تحبين رفاييل؟

قالت الدونا مانويلا ذلك بعدم تصديق، اذ كيف يمكن لأي كان الا ان يعبد حفيدها؟ ثم حاولت ان تفهم فانيسا ان الأمر لا يتعدّى رفضها للانصياع لسلطة الدون، ففانيسا كما تعتقد معتدّة كثيراً باستقلاليتها ولا ترضى لأي كان ان ينتقص من هذه الاستقلالية، وليس الأمر في النهاية سوى لعبة بين شخصيتين قويتين. عند قول هذا احتجّت فانيسا بشدة قائلة:

ـ لكن الأمر لا يبدو دائماً كذلك.

ـ حقاً؟ الا تستمتعين احياناً بمثل تلك الشجارات الصغيرة بين رجل وامرأة؟ اذكر عندما كنت صبية وكان كل هؤلاء الشباب يهتمون حولي ان افتعال تلك المشاجرات كان تسلية مثيرة بالنسبة لي.

ضحكت فانيسا من قلبها وسألت الدونا:

ـ اخبريني عن قصصك الغرامية يا سيدتي، احب سماع ذلك.

ـ كنت مصدر بأس كبير لكل مرافقاتي، لكن عندما قرع جدّ

رفاييل بابي عرفت انه الرجل المناسب.

ـ الم يكن زواجك مرتباً من قبل العائلة؟

ـ دون رفاييل لويز الذي اصبح زوجي فيما بعد كان واحداً من الكثيرين الذين رشحهم والدي للزواج مني، لكن عندما عرفت انه لن ينحني لي كسواه ولن يتذلل عند قدميّ قلت لنفسي لن يكون لي زوج غيره. نحن في اسبانيا نقول ان على المرأة ان تحب زوجها كصديق وتختاره كعدو... فكيف اذا كان الزوج من عائلة الدوميريك يجري في عروقه الكثير من دم القراصنة القدماء! هل اخبرك رفاييل بذلك؟

ضحكت فانيسا وأسرعت قائلة:

ـ نعم، اخبرني وبكل فخر واعتزاز.

ـ هذا يذكّرني يا صغيرتي بأشياء اريدك ان تريها. قومي الى تلك الخزانة وناوليني صندوق الجواهر.

فعملت فانيسا كما طلبت منها دونا مانويلا، وأحضرت صندوقاً من الفضة ظهر عليه القدم الشديد.

شكرتها العجوز وأدارت المفتاح في القفل فانفتح الغطاء عن مجموعة ساحرة من القلائد والاقراط وكل أشياء الزينة. ترى، قالت فانيسا في نفسها، أتكون هذه حلى تلك الانكليزية التي تزوجها الدوميريك الاول بعد ان أنقذها من البيع في سوق الرقيق؟

سألتها الدونا بصوت خافت:

ـ بماذا تفكرين يا طفلتي؟

فهمست فانيسا مخافة ان تعكّر السحر الذي أضفته هذه الاشياء القديمة على اللحظة:

ـ بالفتاة التي تزوجها دون رفاييل الأول.

ـ اذن اخبرك رفاييل بالقصة المشهورة؟ هل أدهشتك؟

ـ في البداية نعم، لكن حفيدك أخبرني ان الحب نما بين الاثنين فيما بعد.

ـ وهل تجدين الأمر غريباً، ان تقع فتاة انكليزية في حب قرصان اسباني عرّض حياته للخطر من اجل انقاذها من مصير مخيف؟ نعم أحبته ورافقته في اسفاره الى ان اكتشفا جزيرة لويندا هذه فاستقرّا وكونا عائلة.

ابتسمت فانيسا ولمعت عيناها الخضراوان بحرارة:

ـ قصة رومانسية حقاً.

ـ ويجب ان لا تنسي يا عزيزتي ان ذلك الدوميريك الأول كان ابن عصره. ربما كان رجلاً قاسياً لكن كانت له الشجاعة وتزوج من تلك الفتاة التي انقذها. ربما كان السبب في نجاح ذلك الزواج ان عند كل امرأة، واقصد المرأة الانثى حقاً، جانباً بدائياً يميل الى الرجل القوي والعدائي احياناً. فالمرأة تتطلب التسلط من الرجل رغم مقاومتها الظاهرية لهذا التسلط. انها تماماً كالنمرة التي تشاكس وفي الوقت ذاته تحبّ مروّضها.

لم تناقش فانيسا ذلك مع الدون! طالما احست ان أعماقها كلها كانت ترتعش لذلك اللمعان المتسلط في عيني الدون رفاييل. وبينما هي تتفحص الاشياء الكثيرة في صندوق المجوهرات لفت انتباهها كيس من الجلد يضم كتاباً في داخله، فسألت الدونا التي اجابتها:

ـ انه ألبوم الصور! وكنت أبحث عنه طيلة الوقت، خذي انظري.

وشهقت فانيسا عندما رأت صورة الدون رفاييل وهو صغير:

ـ ما أجمل خصلات شعره! ما أجمله!

ابتسمت الدونا بفرح لردّة فعل فانيسا وقالت:

ـ كان عفريتاً صغيراً لا يحب الا ان يبحر بقاربه الصغير مع الهنود ويعود في نهاية النهار منهكاً متّسخاً. كنت آمل ان يصبح له اخوة واخوات، لكن ماريانا امه لم تستطع ان تنجب بعد رفاييل. وانظري اليه الآن، لديه كل السلطة لكنه لا يسيء استعمالها ابداً. أهل الجزيرة يحترمونه ويحبونه في نفس الوقت.

وابتسمت دونا مانويلا بكل فخر واعتزاز ثم اضافت:

ـ ستحتفل الجزيرة كلها اروع احتفال يوم يأخذ رفاييل عروساً له. وان كان حقاً وجد في الأرملة مونتيز حلمه، فليكن. مع اني عجوز تقليدية وتفضل ان تكون الصفات الأهم في الزوجة دفء المحبّة والقدرة على التحمل، الى جانب الرغبة في انجاب الاطفال.

اكملت الدونا كلامها واغلقت ألبوم الصور ثم بدأت تبحث عن شيء في صندوق الحلى حتى وجدته، أسورة محفورة من حجر اليشم الأخضر ومعها زوج من الأقراط المماثلة قرّبتها الدونا من اذن فانيسا متفحصة وقالت:

ـ هذه لك يا عزيزتي. اعطيني يدك.

كانت دهشة فانيسا كبيرة ولم تعط الدونا يدها. لكن هذه أصرّت وألبست فانيسا الأسورة الجميلة وسألتها ان اعجبتها فاجابت:

ـ لكن يا دونا مانويلا، لا استطيع قبول حلى كهذه، انها من ذكريات العائلة... وماذا سيقول حفيدك عندما يعرف بالأمر؟

ـ ليس هذا من شأنه، ربما كانت هناك بعض القيمة التاريخية لهذه الأشياء لكنها لا تقارن ببقية حلى زوجة رفاييل الأول. هيا اقتربي يا عزيزتي ودعيني أضع الاقراط في أذنيك. كم يناسبك لونها الأخضر.

ـ لطيف منك يا دونا مانويلا ان تسمحي لي بوضعها بعض

الوقت...

ـ انها لك يا عزيزتي. انا متأكدة ان المرأة التي لبست هذه الحلى يوماً كانت ستسرّ كثيراً لو عرفت انها اصبحت ملك فتاة انكليزية اخرى.

ـ تقصدين ان هذه الاشياء كانت لها... لتلك المرأة الانكليزية؟ يا إلهي! سأحافظ عليها كما احافظ على روحي... لكن، هل انت متأكدة ان الدون لا يمانع؟ انا لست سوى مستخدمة هنا!

ـ لا تقولي هذا يا صغيرتي، انت اكبر من ذلك وانا متأكدة تماماً انه لن يمانع.

وربتت الدونا خد فانيسا الناعم بلطف ثم اضافت قائلة:

ـ لقد استمتعت بزيارتك كثيراً وارجو ان تتكرر في المستقبل. هلا طلبت من لويزا ان توافيني يا عزيزتي؟

مرة ثانية شكرت فانيسا الدونا على كل شيء، وخرجت باحثة عن لويزا ثم توجهت نحو غرفة باربرا لترى كيف اصبحت.

كانت باربرا مستلقية في سريرها في حالة نفسية متعبة. شجعتها فانيسا على الخروج والجلوس معها على الشرفة. كان الطقس منعشاً والغيوم قد بدأت تتجمع في السماء.

ـ ارجو ان لا تمطر كي تتمتعي بسهرة لطيفة مع ذلك الشاب الاميركي الجذاب.

قالت فانيسا ببطء:

ـ لا عليك يا عزيزتي، لن أدع قطرات المطر تفسد علي سهرتي.

ورفعت نظرها الى السماء بينما كانت أصابعها تتلمس القرط الجديد المتدلي من أذنها وابتسمت لنفسها. كان الوقت الذي قضته مع الدونا ممتعاً. وكالعادة سرحت فانيسا بافكارها ناسية وجود باربرا

الى جانبها. الجدة لا تبارك العلاقة بين الدون والأرملة مونتيز، بل تفضّل لحفيدها شابة لم تفتح قلبها لرجل قبل رفاييل.

ـ بماذا تفكرين يا فانيسا؟ بسهرتك مع الشاب الاميركي؟

ـ لا، كنت افكر بزيارتي للدونا مانويلا.

أجابتها فانيسا التي امتدت اصابعها وقطفت زهرة حمراء من الشرفة. لم تتحمل الزهرة تلك القسوة وانتشرت أوراقها في حضن فانيسا التي جمعتها واحدة واحدة وبرقّة كبيرة وكأنها تعتذر للزهرة. يبدو ان الانسان يفسد الاشياء الجميلة ويشعر بالندم حين لا ينفع الندم!

ـ هكذا اذن؟ وهل دار الحديث حولي؟

ـ فقط بشكل عام. انظري، الدونا أعطتني هذه الاسورة وهذه الاقراط. جميلة، ما رأيك؟

ـ الأخضر ليس لوني المفضل، لكنه يناسبك. ثم ان هذه الاشياء لا تناسب موضة هذه الأيام.

ـ أتريدين ان تقولي اني لست مع الموضة؟

ـ قلت لك اكثر من مرة انك لا تناسبين هذا العصر، لا انت ولا ذلك الرجل المتعسف الذي يتحكّم بحياتي. ألم تلاحظي كيف كان ينظر الى راي واليّ ليلة امس؟ اظنه يشك بعلاقتنا ولم يعد يهمني شيء. فليعرف.

ـ انتبهي يا باربرا، لا أظنك تريدين معاداة الدون من اجل انسان غير مسؤول كراي.

ـ ماذا تريدين مني ان افعل؟ أقبل برجل يختاره لي الدون. لا يا عزيزتي لن يرغمني أحد على الزواج من شخص لا أحبه. لا تبتسمي لي بهذه الطريقة. ماذا تعرفين انت الانكليزية الباردة عن اصابع

الحب الحارقة عندما تتغلغل في الصدر؟

قالت فانيسا بحزم:

ـ لا تفقدي اعصابك بهذا الشكل.

ـ من أنت لتصدري الأوامر لي؟ لا تنسي انك لست سوى المرافقة الانكليزية في هذا البيت. احتفظي برأيك لنفسك.

انتفضت باربرا من مكانها وركضت الى غرفة نومها مغلقة الباب خلفها بقوة.

عضّت فانيسا على شفتها بندم ثم قامت لتذهب تاركة باربرا لهدوء غضبها بنفسها. كان وقت الغداء قد اقترب ومع ان فانيسا فقدت شهيتها بعد الذي حدث الا انها اخذت تحضّر نفسها للنزول قبل ان يبعث الدون بأحد الخدم في طلبها.

كانت فانيسا المرأة الوحيدة بين عدد من الرجال الاسبان حول طاولة الغداء. لوسيا مونتيز لم تعد من رحلتها بعد وباربرا تلازم غرفتها. لم يزعج هذا فانيسا، كانت معتادة على صحبة الرجال يوم كانت في اورداز. بل على العكس كانت محط انظار الجميع، واكثر من مرة كان على الدون ان يترجم لها الملاحظات التي كان يبديها ضيوفه الاسبان.

كان غداء عمل كما يظهر ووجود فانيسا اضفى الطراوة على جوّه. وعندما استأذنت فانيسا للانسحاب رافقها الدون الى باب الصالة وهمس لها مبتسماً:

ـ كنت رائعة يا عزيزتي، وضعت هؤلاء الرجال في حالة نفسية منشرحة مما يسهل عليّ المهمة الآن.

ـ حظاً سعيداً يا سيدي.

ودّعها الدون بانحناءة رسمية لكن نظرته الطويلة الى عينيها كانت

تحمل دفئاً كبيراً.

لم تشعر بالرغبة في الذهاب الى غرفتها بل اتجهت نحو البحيرة. كانت الامواج الفضية تلطم الشاطىء ووقفت فانيسا برهة تراقبها، مأخوذة بانتظام حركة الامواج التي لا تتعب. لم تلاحظ ان طرف تنورتها امتلأ برشقات الماء والرمل، وعندما ادركت ذلك ابتعدت متوجهة نحو الشاليه وتمددت على احد الكراسي المريحة المواجهة للبحيرة.

بدأت الصور والذكريات تتوالى... تذكرت يوم كانت في طريقها الى لندن للسفر الى لويندا وكيف شعرت عندئذ بأن دوران عجلات القطار كان يخبرها انه لن تكون لها عودة الى انكلترا. لم تكن حزينة، كانت تعرف ان احداً في انتظارها في الطرف الآخر اما الآن... وقبل ان تعرف استسلمت لنوم لذيذ دام اكثر من ساعة، لتستيقظ فجأة وتمد يدها مسرعة لتلتقط مجلة، وكأن حاستها السادسة نبهتها الى قدومه.

ما كادت تنتهي من فتح المجلة حتى كان يقف قربها بقامته المديدة، واكتشفت انها تمسك بالمجلة معكوسة.

بادرها الدون مستفسراً:

ـ هل تجدين القراءة اكثر امتاعاً على هذا الشكل؟

ـ ما أغباني!

تمتمت فانيسا وهي تصحح وضع المجلة والدم يندفع الى وجهها ساخناً تحت نظر الدون المحدق فيها دون رحمة.

ببطء شديد ومن غير ان يرفع نظره عنها... عن شعرها الجميل، عن عنقها وكتفيها المكشوفتين سحب كرسياً وجلس قبالتها. سألته محاولة السيطرة على اضطرابها:

ـ أمل ان يكون اجتماع العمل قد آتى الثمار التي اردتها يا سيدي؟

اومأ برأسه ان نعم ثم قال:

ـ مرة او اكثر على مائدة الطعام لاحظت على وجهك تعبيراً قلقاً. بالطبع رأيتك تحاولين اخفاء ذلك بالابتسام، لكن ما في القلب يظهر في العينين مهما حاولنا تغطيته. فكيف اذا كان المعني امرأة حساسة؟ هل في قلبك حزن يا فانيسا؟

ربما كانت هذه المرة الثانية او الثالثة التي ناداها فيها باسمها الأول وبنبرة دافئة حنونة. ازداد اضطراب فانيسا امام جاذبية هذا الرجل الآتي الذي يعرف حق المعرفة تأثير جاذبيته هذه على المرأة، ويعرف كيف يستعملها لازاحة الستار الذي يغلّف غموضها.

ـ لم لا تفتحين لي قلبك كما لو كنت عمّك؟

قالها الدون بجدية واضحة.

أجابت فانيسا:

ـ لكنك لست عمي.

ـ صحيح، لست عمك ولا يهمّني ان اكون.

ـ لم لا؟ لأنك تظن اني لا اقبل بعادات الاسبان؟ اتظن ان عمي اعطاني قدراً كبيراً من الحرية يا سيدي؟ انها الطبيعة الانسانية ان تعطي من تحب مساحة واسعة يتنفس فيها.

ـ لست هنا في معرض الحديث عن نقاط ضعف الطبيعة الانسانية، خاصة فيما يتعلق بشجون القلب. ما بك يا آنسة وما الذي يشغل بالك! ايتعلق الامر بباربرا؟

يا للرجل! يظهر انه مصرّ على معرفة ما يدور في اعماقها. ما له ولها... ما له ولمزاجها المتعكّر؟ لم لا يدعها وحدها؟

ـ باربرا تعرف انك مشتبه بأمرها وامر السيد الفاداس

وتخاف ان . . .

ـ باربرا الآن كالفراشة التي تحوم حول النار . . . ولن ادعها تحرق نفسها ان استطعت ذلك.

هذا الرجل دائماً على حق. كم تتمنى لو تضع يدها يوماً على نقطة ضعفه! وكعادتها سبحت فانيسا بافكارها ثم قفزت من مكانها مرتجفة على حركة غير متوقعة الى جانبها. مجموعة من الطيور حلّقت معاً تاركة اغصان الشجرة التي كانت تجلس في ظلها. اصابع دافئة قبضت على معصمها وصوت صاحبها الأجش كان يقول:

ـ لماذا تزعجك صحبتي يا آنسة كارول؟ لم تشعرين بالراحة في حضور الآخرين وفي اللحظة التي تجدين فيها نفسك وحيدة معي تضطربين وتستعدين لمعركة؟ كم ينفد صبري معك!

ـ انا آسفة، لكني لست وحدي المسؤولة عن هذا الاحساس. انه شعور متبادل تصعب السيطرة عليه . . .

ـ تصعب السيطرة على غير ذلك يا آنسة. احذرك من العفريت الذي يسكنني، لا تدعيه يستيقظ اذ لن تكون تجربة ممتعة لك . . . اعدك بذلك.

ـ انا؟ انا اوقظ العفريت فيك يا سيدي؟ وهل عليّ ان اقبل أوامرك كلها دون سؤال كما يفعل كل من يعمل عندك او يعيش تحت سقفك؟ أتظن تهديداتك فيما يتعلق باصدقائي لا تجعل الدم يفور في عروقي؟ ما المنتظر مني؟ ان اقبل التهديدات كأمر واقع ما دمت في حماك؟ وما دمت راضخة، كل ما في الكون يزهر ويشرق . . .

ـ هنا المشكلة اذن، ازعجك طلبي ان تكوني في القلعة في ساعة معقولة كما تفعل كل النساء في بيتي!

ـ لا. ليس الأمر كذلك. الذي ازعجني هو ما اشرت اليه فيما

يختص بعمله في الجزيرة وخطر فقدانه، ان هو لم يراع تقاليد بيتك. بالطبع لا انتظر ان افعل انا ما يحلو لي بينما لا يسمح لباربرا بذلك. لكنني أحتجّ بشدة على التهديدات التي توجّه الى اصدقائي.

نظر الدون اليها باحتقار وقال:

ـ اتظنين هذا الرجل، غاري السنغ، يريدك فقط صديقة له؟ لا تقولي لي ان الانكليز يؤمنون بالحب الطاهر بين رجل مكتمل وامرأة جذابة. يا إلهي! نحن الذين يجري في عروقنا الدم الاسباني، برغم عاداتنا التي تعتبرينها بالية، لا يمكن ان نقع في مثل هذا الخطأ. نحن لا نهين الرجولة بهذا الشكل، ولهذا نضع القوانين التي تحكم علاقة الرجل بالمرأة . . . لحماية الاثنين. تقولين صداقة! انت تموّهين يا آنسة.

ـ انت تتكلم عن الاسبان وغاري ليس اسبانياً، وليس سيداً ينتظر من الجميع الانحناء امام سطوته!

طار صواب الدون ولمع الغضب في عينيه، وبحركة سريعة قبض على ذراعي فانيسا التي وجدت نفسها وجهاً لوجه امام رجل قادر على تحطيم عظامها في فورة غضبه. صرخ في وجهها:

ـ كيف تجسرين على مخاطبتي بهذه اللهجة! اذن هذا الرجل السنغ يروق لك، فهو ليس اسبانياً، وانت تحبين الرجل الذي يتلاعب بالحب وكأنه للتسلية؟

ـ دعني . . . دعني. انت تكسر ذراعي . . .

ـ لا يا آنستي. عندي رغبة في قهرك هذه اللحظة. ماذا افعل بك؟ نحن الآن وحدنا . . . هل اجعلك تنحنين امام سطوتي؟ لا تنسي ان في عروقي دم قراصنة. لا يمكنك تجاهل ذلك. غرائزي كلها متحفزة للانقضاض الآن مثل وحش تماماً.

لم تستطع فانيسا ازاحة نظرها عن وجه هذا الرجل الغاضب. كان يهزها بعنف ويحدق في عينيها كأنها فريسته. فجأة اطلق ضحكة خافتة ثم قال:

- لا تخافي يا آنستي الانكليزية. انت معي في امان رغم كل غرائزي المجنونة... بأمان كما لو كنت باربرا، فكفّي عن النظر الي وكأني طاغية.

صمت الدون واخذ يتفحص العلامات الحمراء التي تركتها اصابعه على ذراعي فانيسا. وبهدوء مفاجيء همس:

- المرأة كالبحر تقدر ان تكون مخيفة في سلطانها. امامها يلجأ الرجل الى قوته ليقمع قسوتها الخفيّة. وهي دائماً تعي ان لديها من السلطان ما يكفي لمحو قوة الرجل وتحويلها الى تنهدات تنسكب فوق استدارة كتفها الملساء. كوني حكيمة في استعمال سلطانك يا صغيرتي، فهو امّا ان يوصلك الى السعادة او الى اليأس.

مع الهدوء الغريب الذي يسبق العاصفة، احست فانيسا برغبة فرحة في الخضوع. الخضوع لشيء ما، نبيل، في هذا الرجل. ما اصغرها امامه. كم تأسف الآن لما بدر عنها من عدم احترام. التقت عيناها بعينيه العميقتين وهمست:

- انا آسفة يا دون رفاييل، لا حقّ لي بالتحدث اليك بهذه الطريقة.

هز الدون كتفيه بعدم مبالاة وأرخى قبضته عن ذراعيها قائلاً:

- انت تنفرين مني لأني اتصرف كولي امرك الاسباني ولا اتصرف كما تتوقعين من رجل انكليزي. لكنني اسباني، ومهما يكن فان نيّتي تجاهك حسنة.

في طريق عودتهما الى القلعة كانت ألوان السماء رائعة وآثار المطر

اضافت جمالاً حزيناً الى لحظات الغروب تلك. وهناك على ذلك المنحدر وقفت فانيسا ورفاييل برهة يراقبان الشمس تغيب وراء الجبال. كانت لحظة تنحبس لها الانفاس. لحظة غرقت السماء في لون رائع وببطء اختفى كل ذلك ومات. تماماً مثل صحوة الموت، كان صفاء وجمال تلك الهنيهات. ونزل الغسق البنفسجي.

همس دون رفاييل مأخوذاً:

- يا للروعة!

تطلعت اليه فانيسا بطرف عينيها. لم تعرف ان حزن الغسق انعكس على وجهها، ولوّنه بألوانه الهادئة مظهراً جمال هذا الوجه وتكاوينه الدقيقة، ولم تعرف ان الرجل الواقف الى جانبها كان يراقبها مسحوراً.

- يعجبك المنظر، اليس كذلك؟ رأيتك مراراً عديدة تقفين في هذا المكان. تحدقين بالبحر وبالجبال.

خفق قلبها بعنف اذ لم تكن تدري في اللحظات التي كانت تقف فيها هنا... لم تكن تدري ان عينيه كانتا عليها.

- من جناحي في القلعة ارى الشاطىء بأكمله. بماذا تحدقين وعمّ تبحثين؟

الا يمكنك بعد ان تقبلي بنسيان اورداز وانتهاء تلك الفترة من حياتك؟

تنهدت فانيسا واجابت:

- من الطبيعي ان يتعلق الانسان بالذكريات الحلوة.

- احتفظي يا عزيزتي بالذكريات كما لو كانت جواهر غالية، ضعيها جانباً. ذكريات اخرى ربما اغنى يجب ان تأخذ مكانها في حياتك. الم تقل لك ماريا العجوز ان احداثاً سعيدة بانتظارك؟ لا بد

ان يكون الحب احدها. لكن تأكدي يا عزيزتي من مشاعرك، تأكدي انها الحب الحقيقي لا مجرد حاجة او نزوة طارئة.

بالطبع كان يثير في حديثه الى جاك او غاري لم تضطرب فانيسا لكنها احست بثقل كبير يجثم فوق صدرها.

ـ لكن ما هو الحب؟

انطلق السؤال الهامس دون تفكير وادركت فانيسا انه لولا الهدوء الغريب الذي اشاعه الغسق حولها لما جرؤت على التفوه بمثل هذا السؤال امام الرجل الواقف الى جانبها.

ـ الحب ماسّة خام يا فانيسا... ضربة واحدة خاطئة وتتحطم تاركة خلفها بحراً من الدموع. الحب رجفة ويد ممدودة تنتظر... الحب نحلة عسل تعرف تماماً على اي مكان في الزهرة تحطّ... الحب اشياء كثيرة يا صغيرتي لكنه فوق كل شيء، هدية... علينا ان نتأكد من اعطائها لمن يعرف قيمتها.

وسارا باتجاه القلعة وفانيسا تفكر في نفسها ان كلاماً كهذا لا يصدر الا عن رجل غارق في الحب. ترى اتعرف لوسيا مونتيز قيمة الحب الذي يكنّه لها هذا الرجل؟

في غرفة نومها، اخذت فانيسا تستعد لسهرتها مع غاري. لبست ثوباً من الحرير البرونزي اللون ينسدل فوق ركبتيها. لم تنس الجواهر التي اهدتها اياها الدونا مانويلا والتي اضافت سحراً خاصاً الى مظهرها.

ثم اخذت تتلمس العلامات الزرقاء التي تركتها اصابع الدون على ذراعيها عندما كان غاضباً. وتذكرت كيف تحوّل غضبه الى نعومة حزينة شفافة.

ارتعشت فانيسا للذكرى وحاولت تجنّب النظر الى عينيها في

المرآة، ومدت يدها الى قارورة العطر فأخذت ترش منه على عنقها وكتفيها المكشوفتين. ترى هل مزج هذا العطر خصيصاً من اجل والدة الدون؟ لا بد ان يكون الأمر كذلك فهذه غرفتها.

وضعت فانيسا اللمسات الأخيرة وأسرعت خارجة من غرفتها. توقفت برهة امام باب غرفة باربرا... قرعة خفيفة على الباب ثم دخلت. كانت باربرا ما تزال مستلقية على سريرها تستمع الى موسيقى عالية صاخبة لم تسمح لها بسماع صوت خطوات فانيسا.

ـ الى متى يا باربرا تبقين مستسلمة لهذا المزاج المتعكر؟ الغلطة ليست غلطتي ان اكتشف الدون امر علاقتك بقريبه راي. اوقفي هذه الموسيقى العالية يا باربرا لنستطيع التحدث.

ـ لست مرغمة على البقاء ان كانت الموسيقى لا تعجبك.

اجابتها باربرا بتحدّ في اللحظة التي كانت تتجه فيها فانيسا الى الفونوغراف لاسكاته. خيّم صمت مطبق على الغرفة... صمت ملىء بالنفور والتحدّي. بدأت فانيسا تتكلم بغضب ثم حاولت السيطرة على نفسها:

ـ تصرفي كشخص ناضج ان كنت تريدين ان تعاملي كامرأة لا كفتاة صغيرة.

ـ وانت يا آنسة فانيسا الزمي حدودك ان كنت تريدين ان تحتفظي بوظيفتك هنا. مكانك في خلفية الاشياء وليس من حقّك التدخل بعلاقاتي الشخصية.

ـ باربرا، يحزنني ان اراك غير سعيدة...

ـ حقاً؟

كان التحدّي واضحاً في نبرات صوت باربرا، وعرفت فانيسا ان الفتاة تتألم وان علاقتها براي ليست علاقة عابرة فالفتاة متعلقة به ولا تنوي ان تخسره مهما حصل.

٨ ـ ما أتعسها هذه اللحظة ، غريبة في حديقة غرباء . . . غريبة تبكي . كيف لم تعرف من قبل حقيقة مشاعرها تجاه هذا الرجل الذي أنقذ حياتها ؟ عندما ترتعش المرأة للمسة يد ، عندما يخفق قلبها لحضوره . . . لا ، لم يكن هذا مجرد عرفان بالجميل .

ـ بماذا تفكرين يا آنستي الانكليزية ؟ بأن راي قد سلب عقلي ؟ لربما فعل لكان الدون أرغم على تزويجي منه لكنه بدل ذلك سيجعله يترك القلعة . أقسم بأعز ما عندي اني سألحق به . فانيسا ارجوك كلمي الدون . قد يسمع منك . ارجوك .

ـ يسمع مني أنا !

وضحكت فانيسا بمرارة ثم أضافت :

ـ الدون يا عزيزتي ينظر الي تماماً كما لو كنت مراهقة . سيهز كتفيه وان يأخذ أية كلمة أقولها على محمل الجد . انه يخاف عليك يا باربرا . كان يحب والدة راي كثيراً ورأى بعينيه العذاب المر الذي أذاقها اياه والد راي . وهو يظن ان راي مثل أبيه لا يتحمل

www.elromancia.com

المسؤولية ، ولا يريدك ان تشقي معه .

ـ لكن الحب يأتي قبل كل شيء . ألا ترين أني أفضل مواجهة الشقاء مع راي على مواجهة الحياة بدونه ؟ ارجوك يا فانيسا ، ارجوك ان تكلمي الدون فهو رجل ايضاً وله احاسيسه .

كانت فانيسا تعرف جيداً ما سيكون ردّ الدون ، لكن لا بأس ، ستحاول من اجل باربرا ، وستحاول افهامه ان الأمر يتعدى النزوة الطائشة وان الفتاة جادة في الأمر .

وقبل ان تخرج ، وعدت باربرا بالمحاولة فرمت الأخيرة ذراعيها حول فانيسا شاكرة وطالبة منها العفو على ما صدر عنها من اساءة .

قبّلتها فانيسا مرتبكة . . . لم تعرف هل تبكي أم تبتسم ، وقالت :

ـ هيا ، عودي الى فراشك ونامي باكراً هذه الليلة ، عليّ ان اذهب الآن .

في الخارج وبعد أن أقفلت فانيسا باب الغرفة ، وقفت برهة وهي تحس بغصة في حلقها ، لم تكن تعرف قبل الآن كم هي مرتبطة عاطفياً بمشاكل أهل هذا البيت وهمومهم . اخذت تنزل الدرجات ببطء وهي مستغرقة في التفكير الى أن رأت غاري يقف في انتظارها ويتحدث الى سيد القلعة . نظر اليها الرجلان وفي عيني كل منهما اعجاب واضح ، فقد بدت جميلة جداً في ثوبها الحريري وشعرها النحاسي المنسدل حتى كتفيها .

بخطوات سريعة اقترب منها غاري وعيناه تلمعان اعجاباً . أمسك بيدها ونظر الى وجهها قائلاً :

ـ يا الهي ! تبدين رائعة !

شكرته فانيسا وابتسمت له لكنها كانت تشعر بحضور الرجل

الآخر الذي كان يقف على بعد بضع خطوات ينظر اليهما .

رافقهما الدون الى الباب متمنياً لهما أمسية جميلة . وفي الخارج تنفس غاري الصعداء قائلاً لفانيسا :

ـ هذا الرجل ! انا متأكد انك مسرورة للابتعاد عنه ولو لبعض الوقت ، أليس كذلك يا حلوتي ؟

ـ انه متسلط بعض الأحيان .

ـ مهما يكن فقد سمح لنا باطالة السهرة حتى الحادية عشرة قبل منتصف الليل . يكون انسانياً احياناً .

ـ احياناً .

أجابت فانيسا وهي تتذكر ما قاله لها هامساً عن الحب . الحب ماسة . . . الحب ارتجافة . . . هدية . . .

اضطربت فانيسا في أعماقها وأحست بالدم الحار يندفع الى وجنتيها ، لكنها كانت شاكرة للعتمة التي أخفت كل ذلك ، وعندما وصلا الى المطعم كانت قد استعادت السيطرة على نفسها ، خارجياً على الأقل .

كانت بداية السهرة ناجحة فغاري كان محدثاً جيداً مثل أكثر الاميركيين . تحدث عن نفسه كثيراً . واستمعت فانيسا اليه معظم الوقت اذ لم تكن تشعر بالرغبة في الكلام . لم ينزعج غاري من ذلك بل ظهر عليه ان التمتع بوجودها يكفيه .

تناولا العشاء في الخارج تحت الأشجار وضوء النجوم . كانت الموسيقى جميلة وحالمة . اختار لها غاري الصنف الذي يجب أن تأكله فضحكت قائلة :

ـ ما هذا ؟ رجل آخر يملي عليّ ارادته ؟ لا اعرف ما الذي يجعل الرجال يحسون بأن عليهم أن يأخذوا بيدي ؟

ـ انا اعرف أين أحب ان آخذك . سينتقل عملنا الى تشيلي بعد حوالى شهر من الآن . ما رأيك بحزم أغراضك والذهاب معي ؟

تشيلي ! وخفق قلب فانيسا :

ـ ماذا ؟ أتوافقين ؟ لا تسيئي فهمي ، بالطبع لا أنوي ان تكون علاقتي بك علاقة أخ بأخته ، لكن عندي أصدقاء متزوجين سيرحبون باقامتك معهم هناك بينما نحن في مرحلة التعارف . . . بالنسبة لي انا . . .

ـ لا تستبق الأمور يا غاري فهذه أول مرة نلتقي فيها ولم أوافق على عرضك بعد . ثم هل تطلب يد كل فتاة تقابلها ؟

ـ بالطبع لا . لكن حلمي كان دائماً ان التقي بفتاة مثلك كاللعبة تماماً . يا الهي كم أنت جميلة يا فانيسا . . . هذا الوجه وهذا القد . لا استطيع ان اتركك بين براثن هذا الرجل الاسباني . أنقذ حياتك . . . نعم . لكن هذا لا يعطيه الحق في استعبادك ومهما يكن فالاشاعة تقول انه مقدم على الزواج من أرملة جذابة قريباً . وتعرفين ، طبعاً ، انها لن تقبل بوجود صبية جميلة مثلك في بيتها خاصة اذا كان لها دم ايرلندي !

قالت فانيسا ضاحكة :.

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ كيف لا ! عينان خضراوان مزروعتان في الثلج وشعر أحمر تسكنه العفاريت ! من الايرلندي في العائلة ؟ امك ؟

ـ نعم امي . كم هي غريبة قصة الوراثة هذه مع انه لا امي ولا أبي كان لهما شعر احمر ولا مزاج عصبي . لكني اتمتع بالاثنين .

ـ عظيم ، عظيم . احب المرأة التي تستمتع بمشاجرة وأنت تتمتعين بكل الصفات التي اطلبها في المرأة .

ـ يسرني سماع ذلك ، لكن ما الذي يجعلك متأكداً من انك انت تتمتع بالصفات التي اطلبها في الرجل ؟

ـ لا تنقصي من قيمتي يا عزيزتي . كثيراً ما همست الفتيات في أذني اني شاب لطيف محبوب ، وان عندي المقدرة ان اجعل اية فتاة تحس كأنها امرأة كاملة . لكن صحيح . لم تتح لك الفرصة للتعرف علي عن قرب . سنرى ما نفعل بهذا الشأن .

ـ حقاً . سمعت ان الاميركيين يعملون بسرعة لكنك تضرب الرقم القياسي دون شك .

عند هذا ابتسم غاري وحاول الظهور بمظهر الطفل البريء الذي لا نية سيئة لديه .

ـ كنت أقصد ان آخذك بعد العشاء الى السكاي لايت لنرقص .

قالت فانيسا بحذر :

ـ أحب أن أرقص .

ـ عظيم ، عظيم . كل شيء على ما يرام اذن .

أثناء تناول الطعام استمر غاري يتحدث عن نفسه ومزاياه ومشاريعه وفانيسا تستمع الى ان جاء على ذكر الاسبان ، ثم قال :

ـ يجب ان تحذري من في عروقهم دم اسباني فآراؤهم فيما يتعلق بالحب والزواج غريبة .

ـ تقصد أنهم يأخذون الأمر بجدية ، معهم حق فالمسألة ليست لعب أطفال .

ـ طبعاً . طبعاً هي مسألة جدية ، لكن الافتتان هو الذي يشبه اللعبة . . . ولعبة ممتعة شرط ان لا يجرح أحد الاثنين . لم اؤذ أية فتاة في حياتي ، ألا تصدقين ؟

هزت فانيسا رأسها بالايجاب ثم قالت :

www.elromancia.com

ـ انا متأكدة من انك لم تقصد ايذاء اية فتاة ، لكن المرأة عادة تغوص في اعماق الأشياء اكثر من الرجل ، ونادرة هي المرأة التي تستطيع المرور في تجربة الحب دون الخروج منه بجراح .

لم تنتبه فانيسا الى ما راح يثرثر به الشاب بل أخذت تفكر كم هو طفل في مسألة الحب ، الحب سر لا يحكى عنه . . . الحب عزيز . وتوقفت فانيسا متعجبة ، ترى كيف تعرف كل هذا ان لم تكن . . .

قال غاري :

ـ يجب ان يكون الحب عميقاً كالمحيط ، ألا توافقيني ؟

ـ نعم .

قالتها فانيسا وقلبها يخفق ، فهي تعرف تماماً كيف تريد الحب ان يكون . علاقة تذيب الواحد في الآخر . كم تحلم بذلك . . . لكن عقلها وقلبها يفصلان دائماً عدم التعمق في الأمر . وكمن كان يركض هارباً من شيء ، قالت لغاري وهي تلهث :

ـ ان كنا ننوي الذهاب الى السكاي لايت فعلينا ان نتحرك .

أسرع غاري بالوقوف واصطحب فانيسا الى صالة الرقص التي كانت تعج بالسواح الأوروبيين وتنبعث منها أصوات الموسيقى والأضواء الخافتة .

كانت فانيسا تجيد الرقص وكذلك غاري وأحست كأنها بين ذراعي جاك فاغمضت عينيها وعادت الى لويندا . رأت عمها يقف قرب الفونوغراف بينما كان جاك يشدها الى صدره اكثر فأكثر . وهناك في الزاوية كان يقف رجل يراقب الاثنين .

ارتجفت فانيسا للذكرى الحلوة لحظة ان انتهت الأغنية وتوقفت الموسيقى . وعندما عادت من جديد لاحظت بانزعاج كيف كانت اصابع غاري تشد على خصرها وهو يراقصها وكيف كان نفسه حاراً

على عنقها . قال هامساً وهو يلهث :

ـ ما هذا العطر الساحر ؟ تصورت اني اعرف كل الأنواع ، لكن هذا النوع لم أشم مثله في حياتي ، ما هو ؟

ـ لا اعرف . اظنه صنع خصيصاً لوالدة الدون رفاييل .

ـ لا اظنه يناسب سيدة كبيرة لكنه يناسبك . والآن كيف تشعرين يا حلوتي هل تستمتعين بالرقص ؟

ـ كثيراً . . . لم استمتع هكذا منذ اسابيع .

ـ ولا انا . ماذا يريد شاب اكثر من أن يحتضن بين ذراعيه حسناء بشعر احمر وعينين خضراوين وعطر ساحر . . . ما رأيك لو نخرج الى الشرفة ؟

ـ لا .

ضحك غاري نافثاً في وجهها نفساً حاراً انزعجت منه فانيسا .

ـ قولي انك خائفة . هيا بنا يا فتاتي ، لا تقولي ان الفتيات لا يشعرن بالهيام كالرجال . . .

ـ اظن ان علينا ان نعود الآن يا غاري .

ـ يا الهي ! ما يزال في الوقت متسع . ما بك مضطربة ، أيكون السبب ذلك السيد الاسباني المتعجرف ؟ تأكدي انك في اليوم الذي يل زواجه ستجبرين على ترك العمل عنده ، لذلك من الأفضل لك ان ترافقيني الى تشيلي .

تشيلي ! حيث يعود جاك بعد كل رحلة من رحلاته في الأدغال ! جاك . . . الصديق الوحيد .

ـ هيا . . . قولي انك سترافقيني الى تشيلي فأوصلك الى البيت هذه اللحظة .

ـ حسناً . أوافق . . . لكن افهمني جيداً . اصحبك الى هناك

كصديقة لا اكثر ودون شروط يا غاري . لن اعدك بما قد لا استطيع الايفاء به .

ـ لا شروط . كما تريدين . ترى ماذا سيقول سيد القلعة ؟ هل سيحاول منعك ؟

ـ ربما ، لكن القرار يعود لي ، ولولا خوفي من أن أبقى مدينة له لتركت القلعة قبل الآن بكثير .

ـ مدينة له ، ما هذا الهراء ، انه أغنى رجل على الجزيرة .

ـ ليس هذا هو المهم . انه رجل كريم لكن عندما تحس ان الكرم ناتج عن شعور بالواجب . . . تكره ان تأخذ أي شيء . . . ودائما أحس بالتوتر بيني وبين هذا الرجل . . .

وسكتت فانيسا لتلتقط أنفاسها فقال غاري :

ـ مهما يكن يا عزيزتي فالرجل أنقذ حياتك ، حتى لو كان الدافع هو الشعور بالواجب .

وازداد تقرب غاري اليها فانزعجت لا لشيء الا لأنها لم تجد في نفسها الشجاعة الكافية لاخباره بأن سبب موافقتها على الذهاب معه الى تشيلي رجل آخر . لماذا لا تذهب وحدها ؟ ربما كان ذلك أفضل لكليهما .

في تلك اللحظة توقفت الموسيقى ولاحظت فانيسا اضطرابه . ترى هل يمكنه اعادتها الى القلعة وهو على هذه الحالة ؟

بينما كان يساعدها على الخروج كانت يداه ساخنتين وأنفاسه ثقيلة . اضطربت فانيسا وأسرعت في الخروج قبله لكنه لحق بها الى موقف السيارات وأمسك بها بشدة محاولاً عناقها . قاومت فانيسا دون فائدة فقد كانت ذراعاه القويتان تشدانها بكل ما لديه من

جموح .

ـ دعني . . . دعني ارجوك .

ـ ما بك بحق السماء ؟ باردة أم خائفة ؟

ـ انا فتاة تقليدية . . . هذا كل ما في الأمر ولا احب العناق في موقف السيارات . كانت الأمسية جميلة وها أنت تفسدها .

ـ يا الهي ! عناقي أفسد عليك السهرة ؟ كل الفتيات يتمنين ذلك . لا بد ان الأفكار والتقاليد الاسبانية ، التي ملأت رأسك في تلك القلعة اللعينة ، قد بدأت تعطي نتائجها .

لم تجب فانيسا بل اندفعت نحو السيارة كمن يهرب من غول وبعد لحظة كان غاري في المقعد بجانبها يدير محرك السيارة بعصبية وينطلق بها كالمجنون .

ـ هل أقود بسرعة يا عزيزتي ؟ أليس ذلك ما تريدين ، أن تصلي الى قصرك الحبيب بأسرع وقت ممكن ؟

حاولت فانيسا السيطرة على اعصابها وإبعاد نظرها عن عداد السيارة . بعض الوقت وتصل الى البيت . . . البيت ؟ كم غريب ان تفكر بالقلعة على انها بيتها بينما تعد العدة لمغادرتها . لن تغير رأيها بالذهاب الى تشيلي حيث جاك . لكنها ستذهب وحدها . . . في تلك اللحظة شعرت فانيسا بالسيارة تنزلق وتدفع بها الى الأمام . صرخت قائلة :

ـ بحق السماء تمهل يا غاري ! الطريق ضيقة ومتعرجة .

ـ انا معتاد على اسوأ من هذه الطريق . هيا . . . هيا يا صبي اسرع لتوصل سندريلا الى البيت قبل أن يتأخر الوقت . . .

رجته فانيسا ان يدعها تقود السيارة لكنه أصر على الرفض ، واستمر في سرعته الجنونية . وللحظة كانت السيارة تفلت من

سيطرته وتنزلق على الوحل بعيداً عن الطريق ثم تنقلب مرة وثانية .

صرخت فانيسا برعب فقد كان الألم الذي هاجمها لا يحتمل ، وراحت في غيبوبة سوداء بينما هوى جسم غاري بكل ثقله على عجلة القيادة وانطلق منبه السيارة عالياً دون انقطاع وسط سكون تلك الليلة المقمرة .

بوم ، بوم ، بوم .

يا الله ! هذه الطبول اللعينة ألا تتوقف ؟ العم لونارد لم يسىء الى أحد من هؤلاء الناس . كان دائماً طيباً معهم . . . لا يمكن أن يسيئوا اليه أو اليها !

لكن رائحة المكان غريبة . . . رائحة أدوية . وهذه اليد التي تمسك يدها بينما يستمر قرع الطبول يدوّي في رأسها ويستمر الظلام حولها . . . كأنه لن ينقشع ! وفجأة ظهر بصيص نور وتأوهت فانيسا فوجع رأسها لم يكن يحتمل .

ـ انها تتحرك ، تستفيق يا سيدي .

كان الصوت قريباً ومألوفاً . . . صوت امرأة . وعادت الصورة البشعة . . . صورة الرجل الواقف امام باب مكتبة عمها وبيده مسدس !

حاولت فانيسا جاهدة أن تفتح عينيها رغم انزعاجها من النور ومن القرع المزعج داخل جمجمتها . ثم الصوت ! الصوت الهامس والوجه المنحني فوق سريرها :

ـ فانيسا ، أتعرفينني ؟

طبعاً تعرفه . . . كان يأتي كثيراً لزيارة عمها . . . ترى هل حدث شيء لعمها هذه المرة ؟

ـ هل أصابه مكروه ؟ يجب أن اذهب لأراه .

وحاولت النهوض من سريرها .

ـ اظنها تتكلم عن الشاب الاميركي . على اية حال شكراً لله فقد استيقظت من ذلك النوم المحموم .

كان هناك وجه آخر . . . وجه امرأة هذه المرة . . . وجه لطيف وباسم . . . ماذا . انها الممرضة .

ـ ما رأيك بتناول بعض شوربة الدجاج يا طفلتي ؟

كانت الممرضة تحمل صحناً من الشوربة محاولة اطعام فانيسا كما تطعم الأم طفلها . جرعت فانيسا السائل بنهم فابتسمت الممرضة واستدارت نحو الرجل قائلة :

ـ عظيم . . . عظيم هذه اشارة حسنة . ستستعيد عافيتها قريباً .

لم تفهم فانيسا ما قاله الرجل فقد اجاب بالاسبانية لكنها حاولت النظر اليه ، ولحسن حظها كانت نصف صاحية فلم تر التعبير الحزين على وجهه ولم تعرف ان السبب كان منظرها المؤلم ، فقد كانت مصفرة ورأسها معصوباً بالشاش الأبيض . أدركت فانيسا انها مريضة ، لكن ما بها ؟ وحاولت ان تتذكر لكن المجهود كان كبيراً وأحست بالنعاس .

ـ هل يؤلمك رأسك يا صغيرتي ؟ لا تخافي . سيكون كل شيء على ما يرام . نامي الآن . وستشعرين بتحسن كبير حين تستيقظين .

في الأيام التي تلت تحسنت حالة فانيسا واستعادت بعضاً من قوتها . طبعاً تذكرت ما حدث لها ، وأخبرتها الممرضة الأخت ابزابيل ان اثنين من اضلاع غاري كسرا عندما انقلبت سيارته غير بعيد عن القلعة . هرع أهل القلعة الى المكان عند سماع منبه السيارة المنطلق دون توقف تحت ثقل جسم غاري .

أخبر الدون بالحادث وهرع الى المكان فنقلها الى المستشفى .

لم تطل اقامة فانيسا في المستشفى وعندما عادت الى القلعة رافقتها الأخت ايزابيل لتقوم بالعناية بها لمدة اسبوع أو طالما تدعو الحاجة .

لم تكن باربرا تفارق فانيسا الى أن لاحظت الممرضة ان ثرثرة الفتاة تتعبها ، فطلبت منها أن تقلل من زياراتها واضطرت الى اخراجها من الغرفة . تأففت باربرا من ذلك وقالت بغضب وهي تخرج :

ـ يا لك من طاغية .

ضحكت فانيسا للمنظر وأضافت باربرا :

ـ هذا المكان مليء بالطغاة !

أدركت فانيسا من هذه الملاحظة ان دون رفاييل ما زال يصر على إبعاد قريبه راي عن باربرا . قريباً سيأتي دورها هي بالابتعاد ، رباه كيف ستخبر باربرا ودون رفاييل عن قرارها بالذهاب الى تشيلي ؟ في تلك اللحظة سمعت قرعاً خفيفاً على الباب ودخل دون رفاييل .

وقف قرب سريرها وأمسك يدها طابعاً عليها قبلة خفيفة وقال :

ـ تبدين بصحة أفضل يا صغيرتي ، أتسمحين لي بالجلوس هنا على طرف سريرك ؟

أومأت فانيسا بالايجاب وهي تتساءل في نفسها عن الأمر الذي ينوي التحدث به .

جلس الدون الى جانبها وأحست هي ببعض الاضطراب تحت نظراته التي كانت تجول من وجهها الى عنقها الى ثوب نومها الأبيض .

ـ هل يزعجك حضوري ؟ أتفضلين أن ترتاحي ؟

ـ لا . كنت اتساءل فقط عن الأمر الذي جئت تحدثني به .

ـ أريد ان اطمئن عليك ، ام هل كنت تفضلين لو اسأل الممرضة

بدل زيارتي هذه ؟

التقت عيناها بعينيه ، وابتسمت معترفة لنفسها انها تستمتع بصحبة شخص كله نشاط وحيوية كالدون . الأمر الذي يجعلها تظهر اكثر ضعفاً ورقة وأكثر هشاشة امام رجولته الطاغية . غضبت فانيسا لهذه الأفكار ، لكنها كانت أضعف من أن تقاوم في حالتها الراهنة . ولمرة واحدة تركت نفسها تستمتع بضعفها امامه ، وتستمتع بمنظر كتفيه العريضتين ورأسه المنتصب بفخر اسباني وفمه القاسي . وتصورت لوسيا مونتيز غارقة في عناق هذا الرجل الوسيم . بحنان كبير مد الدون يده ولمس الآثار التي تركها الحادث على وجه فانيسا وقال :

ـ بالطبع ، استطيع سؤال الممرضة عن تحسن صحتك وستجيبني لكنها لن تستطيع اخباري عن تأثير الحادث على حالتك النفسية ، خاصة انك مجبرة على تأجيل تنفيذ مشاريعك الجديدة .

يا الله ! كيف عرف بقرارها ؟ هل تراها تكلمت بالأمر وهي غائبة عن الوعي ؟

ـ تدركين بالطبع اني تحدثت مع السيد ألسنغ بعد الحادث ؟ وهو أخبرني انك قررت الذهاب معه الى تشيلي . هل الأمر كذلك ؟

ـ نعم . . . قررت الذهاب الى هناك . أعرف انك ستحاول منعي من ذلك لكن ألا ترى ان علي ان أبني مستقبلاً لنفسي ولا مستقبل لي في هذا المكان ؟

ومرر الدون اصابعه على شعر فانيسا قائلاً بهدوء :

ـ والمستقبل أمامك في تشيلي ؟ أتنوين الزواج من هذا الشاب المتهور الذي قاد سيارته بجنون وكاد يقتلك ؟ كنت مرمية بين حطام السيارة ووجهك أبيض كالحليب والدم ينفر من ذلك الجرح الرهيب

في رأسك . لن أنسى ما حييت منظرك تلك اللحظة . أتريدين مني ان اصدق انك تحبين شخصاً متهوراً كهذا ؟

ـ انا لا احبه . . .

ـ يا للغرابة ! اذن لماذا ترافقينه الى تشيلي ؟

ـ كنت قد قررت ذلك في البداية . لكنني غيرت رأيي وسأذهب وحدي .

ـ ما الذي جعلك تغيّرين رأيك . . . هل تمادى بالتصرف معك ؟

وضغط بأصابعه القوية على كتف فانيسا .

ـ اجل عانقني رغماً عني . . . سيدي انت توجعني .

وأرخى الدون اصابعه عن كتفيها معتذراً .

ـ عفواً يا عزيزتي ، في أعماقي غضب وحقد على هذا الشاب يدفع بي الى نسيان نفسي احياناً . اذن عانقك ولم تستسيغي ذلك ؟

ـ لا لم يعجبني . . . هل علي ان اخضع لهذا الاستجواب لا لشيء الا لأني أنوي الذهاب الى تشيلي ؟ لست ذاهبة مع غاري . . .

ـ اذن انت ذاهبة من اجل ذلك الشاب جاك ؟

ـ وكيف عرفت بذلك ؟

ـ هل نسيت انني كنت صديق عمك ومحط أسراره ؟ هو الذي أخبرني بكل ذلك . انت تتوقين الى ذراعي ذلك الشاب وترتجفين خوفاً من وقوفي في وجه رغبتك هذه . ماذا يا آنسة ، هل تظنين اني من حجر ؟

وقام الدون واقفاً :

ـ لا . . . لا اظنك من حجر تماماً .

ـ اسمعي يا عزيزتي . ان كنت ترغبين في الذهاب اليه ، وان كانت رغبتك بهذه القوة فليكن ما تشائين . كنت أود لو نسيته ، لكن ما دمت لم تفعلي فهذا يعني أنك حقاً تحبينه ولا حق لي في ايقافك .

وهز الدون كتفيه بلا مبالاة باردة .

ـ انت لا تفهمني يا سيدي . جاك وأنا صديقان لا اكثر !

ـ يا الهي ، كم انت متحفظة . لا حاجة للمراوغة معي يا عزيزتي . تدخلت في امورك الشخصية ما فيه الكفاية اما الآن فيعزيني انك لست ذاهبة الى تشيلي بصحبة هذا الاميركي الطائش غاري . اعترف لك اني كنت أفضل سجنك هنا على السماح لك بمرافقته والتعرض للخطر الذي يجره عليك تهوّره .

كان يتكلم وهو يروح ويجيء كفهد حبيس وفجأة استدار نحوها وقال :

ـ لماذا تقولين ان لا مستقبل لك هنا ؟

ـ الن تتزوج قريباً ؟ لا اظن زوجتك سترغب في مكوثي هنا ، ثم انك أشرت ان لديك خطة بصدد زواج باربرا . بالمناسبة اتسمح لي يا دون رفاييل ان اخبرك كم هي تعيسة ؟ انها تعرف عن نيّتك في التخلص من راي ، وقد ذكرت شيئاً عن الهرب معه ان انت فعلت .

عاد الدون الى جانب سرير فانيسا . يداه في جيبيه ووجهه متجهم .

ـ اعرف شعورك بأني أقسو على باربرا لكنني لا افكر الا بسعادتها . انها فتاة عاطفية وكان علي منذ البداية ان احترس من الأمر ، لكن انشغالي بأمر خاص جداً جعلني لا انتبه لما يحصل حولي الا بعد فوات الأوان .

ـ لكنها تعيسة جداً يا سيدي . انها تخاف ان تفرض عليها زواجاً لا ترغب فيه . ارجوك ، تصور نفسك مكانها . أتقبل بشخص يُفرض عليك فرضاً ليشاركك حياتك ؟

بينما كانت فانيسا تقول ذلك ، ودون وعي منها ، كانت تمسك ذراعه البرونزية بحركة رجاء . انتبهت لنفسها وضحكت . ضحك هو الآخر وقال :

ـ لست جبانة القلب يا آنستي الانكليزية ، أليس كذلك ؟ اذن تظنين اننا نختار امهات أولادنا كما نختار امهات الثيران ؟ نقطة جيدة لكن قولي يا عزيزتي ، هل من الخطأ أن نأخذ بعين الاعتبار شخصية الشريك الى جانب الجمال الخارجي ؟

ـ بالنسبة لي ، الحب يأتي أولاً .

ضحك الدون وعاد الى الجلوس على حافة سرير فانيسا وقال :

ـ اسمعي يا عزيزتي ، في معظم العوائل الاسبانية تجدين فرداً طفيلياً تماماً مثل راي . ولولا ذكرى امه العزيزة لما سمحت له بدخول بيتي . انه شخص غير مسؤول رغم وسامته ، وزواجه من باربرا سيكون مصيبة . لكن لا تخشي على باربرا فقريباً يأتي عيد الكرمة وسيكون الشخص المناسب حاضراً ، وبين الموسيقى والرقص ستقع باربرا في الحب من جديد . عيد الكرمة يأتي بالحب الى جزيرتنا . . . دائماً .

اقترب الدون من فانيسا اكثر وأخذ يدها بين اصابعه اللدنة وقال هامساً :

ـ قلبك يتخبط كعصفور . هل اتعبتك ؟

هزت فانيسا رأسها ان لا . لكن حواسها كلها كانت متوترة مشحونة . كان حضوره الدافىء قريباً منها . . . وأحست بالمتعة .

واتسعت عيناها الخضراوان المتسمرتان على وجهه الوسيم . وبالكاد سمعته يقول :

ـ انت لم تشاهدي بعض رقص الفلامنغو ستسرّين به كثيراً .

ـ لكني راحلة .

ـ ليس قبل أن تستعيدي كامل صحتك . والحفلة ستقام الاسبوع القادم هنا في القلعة . ستكونين هنا .

حفلة ؟ حفلة خطوبته بالطبع !

ـ ستكون حفلة لن تنسيها ابداً . هيا لا يمكن ان تغادرينا قبل الاحتفال .

احتفال ؟ وخفق قلب فانيسا بعنف . ما أقسى هذا الرجل ، سيكون سعيداً اذن لمغادرتها .

ـ حسناً يا سيدي ، سأبقى .

وافتعلت ابتسامة خفيفة مع ان قلبها كان ينعصر بألم كبير . لا بأس ستدعه يظن ان سبب ذهابها هو الشوق لجاك . لا بأس ما دام ذلك يبعدها عن هذه القلعة وعنه . . . الرجل الذي تحب .

وأغمضت عينيها متمنية ان يتركها وحدها . وبالفعل عندما فتحت عينيها ببطء كان يغلق الباب خلفه بكل خفة ونعومة كي لا يزعج نومها .

ظلت فانيسا مستلقية على سريرها وعيناها تحدقان في سقف الغرفة . مجنونة . . . مجنونة . كيف لم تعرف من قبل حقيقة مشاعرها تجاه هذا الرجل الذي انقذ حياتها ؟ عندما ترتعش المرأة لمسة يد ، عندما يخفق قلبها لحضوره بهذا العنف . . . لا لم يكن هذا مجرد عرفان بالجميل .

واعترفت لنفسها انها تهرب . . . نعم تهرب قبل أن تراه زوجاً

للوسيا مونتيز التي عادت من سفرها .

في اليوم التالي تلقت فانيسا مكالمة هاتفية من غاري اعتذر فيها عن الحادث واتهم نفسه بالتهور . افهمته فانيسا بصراحة قرارها بعدم مرافقته الى تشيلي . ولم تورط نفسها بوعود قد لا تفي بها حتى لجاك نفسه ، والذي ظنت فيما مضى انه يستطيع ان يملأ حياتها . بعدالآن قلبها مليء بحب رجل آخر ، ولا مكان فيه الآن لا لغاري ولا لجاك . . . جاك الذي فكرت يوماً بالزواج منه ، ما أغرب الانسان !

بعد بضعة ايام بدأ الضيوف بالوصول الى القلعة ، الضيوف المدعوون الى حضور الاحتفال بعيد الكرمة . كان بينهم شاب برتغالي وسيم ذو عينين سوداوين . فكرت فانيسا ، لا بد ان يكون هذا الشاب هو المرشح للزواج من باربرا التي شعرت بالراحة معه بالفعل ، وأخذت تقضي الكثير من الوقت في صحبته . وتدريجياً بدأت الضحكة تعود الى اسارير باربرا التي كانت صامتة منذ ذهاب راي عن القلعة . سعدت فانيسا لسعادة الفتاة ، لكن مع بعض الحزن . فالأيام تثبت مرة بعد أخرى كم الدون بعيد النظر ولا يخطىء في تقويم الأمور . لكن مع ذلك . . . لا تظن فانيسا ان اختياره للوسيا لتكون زوجته هو الاختيار الصحيح . تعرف ان لها ضحكة مغرية وانها انيقة ، وسيدة مجتمع لبقة لكن . . كم تنقصها خفة الروح وكم ينقصها الدفء الذي يستحقه رجل كالدون رفاييل !

كثيراً ما غص قلب فانيسا لرؤية الاثنين يتمشيان في الحديقة ، وذراع الرجل تلتف حول خصر المرأة المغناج . المرأة التي كانت في رأي فانيسا كالزهرة الاصطناعية لا عطر لها ولا سحر . وكم تمنت لو وقع الدون في حب فتاة كلها عاطفة وحنان بدل هذه الأرملة

الملحاح .

كانت لوسيا بكامل أناقتها وسحرها وجواهرها ليلة الحفلة . دخلت الصالة وهي تستند الى ذراع رفاييل وتلبس عباءة بلون الفضة فوق ثوب اسود يظهر كل مفاتن قوامها الناضج .

احست فانيسا التي كانت تجلس الى جانب دونا مانويلا بغصة الغيرة ، كم تحسد هذه المرأة !

سألت الدونا العجوز واضعة يدها بحنان على ركبة فانيسا :

ـ تبدين هادئة يا عزيزتي ، أما زلت تحت تأثير الحادث ؟

ـ لا أبداً . انا أحسن من السابق بكثير . كم تبدو السيدة مونتيز انيقة هذه الليلة .

لم تجب الدونا بل أخذت تحرك مروحتها الحريرية بعصبية ظاهرة ، ونظرت الى حيث كان الدون . كم تود لو تهرب تلك اللحظة وقبل أن تعلن الخطوبة .

ـ كأنهما خلقا ليكونا معاً !

قالت فانيسا للدونا التي لم تجب اذ كانت مشغولة بالنظر باتجاه باربرا التي كانت تستعد لأداء أغنية تلبية لطلب الحضور .

حضنت باربرا الغيتار وأخذت تغني . كان صوتها جميلاً حنوناً وكانت الأغنية عاطفية أسدلت ستاراً من الصمت على الحضور . وعند انتهاء الفتاة من الغناء علا التصفيق وطالبها الجميع بالمزيد ، فركضت باربرا بفرح نحو الدون تسأله عن أغنيته المفضلة . طوقها الدون بذراعيه بكل حنان وطبع قبلة على جبينها الأسمر مخبراً اياها باسم الأغنية . كان الفرح يعلو وجوه الجميع عندما شرعت باربرا في الغناء من جديد . عندئذ اغتنمت فانيسا فرصة انتهاء الحضور ، وانسلّت خارجة الى الحديقة هاربة من الفرح الذي يغمر الكل

عداها .

هناك في عتمة الحديقة وفي مكان منزوٍ جلست فانيسا تبكي . لم تكن تلك المرة الأولى التي تهرب فيها الى هذا المكان بحزنها . . . لكنها في السابق لم تكن تعرف سر حزنها . لم تكن تعرف مدى حبها للرجل ومدى لهفتها في ان يبادلها سيد القلعة هذا الحب . وتذكرت يومها الأول على الجزيرة . . . هناك على الشاطىء الهادىء عندما قال لها الدون ان الحب قاس وجميل . نعم قاس ، خاصة ان كان من طرف واحد ، وان كان لا امل له بالنمو والحياة . ما أتعسها هذه اللحظة ، غريبة في حديقة غرباء . . . غريبة تبكي .

ـ تبكين ؟

كان الصوت حنوناً ودافئاً ، والذراعان اللتان حضنتاها كانتا بدفء الصوت وحنانه . لم تكن تقوى على الرد وتركت الرجل يقربها من صدره القوي .

ـ قولي يا حلوتي ، ما الذي يبكيك ؟ أيحزنك انك قريباً ستكونين بين ذراعي الرجل الذي تحبين ؟

آه لو يعرف ! هي الآن بين ذراعي الرجل الذي تحب ، لكنها لن تستطيع أن تقول له ذلك . لا تستطيع الا ان تستسلم لعناقه وتبكي .

ـ هيا يا عزيزتي ، اخبريني ما الذي يحزنك . هل تعلقت بنا لدرجة ان يحزنك فراقنا ؟

همست فانيسا بانكسار :

ـ نعم .

ما اجمل ان تكون بين ذراعيه . كم تصبو ان تمرر اصابعها على صدره العريض الحبيب . كم تصبو بكل كيانها اليه . . . كم

تحبه . . . كم . . .

وحاولت فانيسا الابتعاد عنه لحظة ان ظهر القمر في السماء ساكباً لونه الفضي على وجه الرجل . كانت عيناه حائرتين عميقتين كالبحر وكان ممسكاً بيديها على صدره كأنه يخاف ان تهرب . نظرا الى بعضهما لحظة طويلة ارتفع بعدها صدر الرجل بتنهيدة عميقة ثم همس :

ـ الى متى ؟ الى متى تكرهينني يا حبيبة ؟

وحضن وجهها بيديه وهو يحدج الأرض بعينيه الحزينتين .

ـ غاليتي ، هل تكرهينني ؟

حبيبة . . . غالية ! هل حقاً يكلمها هي ؟ هل حقاً يسألها هي ان كانت تكرهه ؟

ـ لا . . . لا يا رفاييل . . .

ـ لا . . . لا تحبينني ؟

ـ . . . أكرهك .

ولم يدعها تكمل كلامها .

قالت بهمس :

ـ يا روحي . . .

وضمها اليه بذراعين كلهما شوق وعطش لكن لا . . . لا يجب أن تستسلم له ، لوسيا هي المرأة التي ستصبح زوجته ، كيف يقسو عليها بهذا الشكل ثم يذهب ويتزوج من لوسيا . . .

وأخذت تدفعه عنها .

ـ لماذا . . . لماذا تبعدينني هكذا ؟ أتخافين الحب ؟ اتخافين من حبي لك ؟

ـ لا يجب أن تقول هذه الأشياء . . . لست أنا من تحب .

ـ يا الهي ! حبي لك كان كالوحش الرابض في صدري من زمان

وتقولين اني لا احبك . من احب غيرك يا مجنونة ؟ تلك الأرملة المصبوغة التي تحلم ان تصبح سيدة القلعة ؟

حدقت فانيسا فيه غير مصدقة . كان قلبها يخفق بعنف كاد يقتلها ، وهمست :

ـ تحبني أنا ؟

وفاض الحنان من عينيه :

ـ انت حياتي ، ألم تدركي ذلك ؟ ألم تنتبهي له ؟ ألم تخبرك قسوتي معك وعصبيتي اني كنت بذلك أقاوم الشوق الساكن أعماقي ؟ حبي لك قاهر ولا أريده غير ذلك . أحببتك لحظة وقعت عيني عليك ، عندما كنت ما زلت فتاة المدرسة الصغيرة البريئة .

ضحكت فانيسا بفرح وخبأت وجهها في صدره . كانت تقدر أن تقتله وهو يغمر لوسيا بكل تلك الابتسامات المشرقة . وعندما سألته عن ذلك ضحك وأجابها بسؤال آخر :

ـ وأنت وجاك كونروي هذا الذي كنت ذاهبة اليه . . . كيف تفسرين وجودك الآن معي وأنت كنت تدّعين حبه ؟ كنت تريدين الذهاب اليه وأراك الآن تفضلين البقاء معي . احذري اللعب بالنار يا فتاة فأنا رجل لم يعد يحتمل .

ـ كنت هاربة منك يا رفاييل لأنني لم اكن اعرف انك تريدني .

والتمعت الدموع في عينيها عندما ضمها من جديد .

ـ اريدك حتى ينتهي الكون يا حبيبة . وان كنت شرساً معك احياناً فلأني لم اكن اكيداً من نفسي . جعلتني ضعيفاً كما لم تجعلني اية امرأة اخرى . كان شوقي لا بل جوعي اليك كبيراً ، ولم اكن اعرف حقيقة شعورك فأخفيت مشاعري .

ـ وأنا أخفيت مشاعري لأني كنت اظنك ستتزوج لوسيا .

ـ لوسيا كانت دائماً تعرف انني لن اتزوج منها لكنها ظلت تحاول

حتى النهاية . فهي من النوع الذي لا يتخلى عن أحلامه حتى يرى الرجل المعني وقد تزوج من امرأة اخرى .

ـ حتى جدتك كانت تظن انك مقدم على الزواج من لوسيا .

ـ جدتي تظن اني سأتزوج من كل امرأة اعرفها .

ثم ضحك وأكمل :

ـ في الاسبوع الماضي اكتشفت جدتي حبي لك . وهي توافق وتبارك هذا الحب . وقد رأتني قبل لحظات وأنا أتسلل من الصالة لألحق بك وابتسمت مشجعة . هل كنت تظنين نفسك غير مراقبة ؟

ولمعت عينا الدون بمكر في ضوء القمر .

ـ ايها القرصان ! انا متأكدة انك استعملت لوسيا هذه الليلة عن قصد لاثارة غيرتي .

ـ اصبح الأمر حرجاً ولا يحتمل يا عصفورتي . كنت تتكلمين وكأنك حقاً ستغادرينني . لكنني سأبرىء نفسي قليلاً وأخبرك ان الفكرة كانت من ابتكار جدتي . نصحتني بأن أبدي اهتماماً أكبر بلوسيا هذه الليلة على أن تجلس هي الى جانبك وتراقب ردة فعلك . وكان الاتفاق ان تهز الجدة مروحتها كلما لاحظت انزعاجك وتوترك لحظة ابتسم للوسيا أو أتقرب منها باهتمام . وكثيراً ما اهتزت مروحة الدونا خلال السهرة . ألم تلاحظي ذلك ؟ ربما لا ، فقد كنت مشغولة بمراقبتنا ، أليس كذلك ؟

وأخذ يمسد شعرها الجميل بيده بينما كانت اليد الأخرى تلتف حول خصرها بكل حب وشوق .

ـ ايها العفريت بدون قلب . حرام عليك ، جعلت المرأة تتوقع الكثير منك .

ـ لا ابداً ، هاتي يدك .

أخذ يد فانيسا ووضعها على صدره حيث كان قلبه يخفق بعنف :

ـ انه يخفق في صدري لكنه ملك لك يا حبيبتي فانيسا . هل يمكن ان تخافي من رجل يحبك بهذه القوة ؟

ما أغرب الانسان . . . كيف كانت تخافه ؟ لكن لا يهم فقلبها الآن يفيض بالحب مغرقاً كل ما عداه . ستكون زوجته . . . زوجة رفاييل دوميريك التي اختارها هو . وتطلعت اليه بشغف لترى الحب في عينيه . غمرها حنانه الرائع الحلو وسمعته يهمس بحرارة :

ـ اريد ان اسجنك في قلعتي لتكوني لي ولي وحدي . أيكفيك حب مثل هذا ؟ أيكفيك يا حبيبتي ان تكوني اسيرتي الجميلة على هذه الجزيرة الى أن تقع النجوم كلها ؟

ـ كنت دائماً اسيرتك يا رفاييل . الآن ادركت ذلك وكلما حاولت الهرب كان هناك ما يشدني الى البقاء .

ـ وكلما عرفت انك تنوين الهرب كنت أقامر وأترك الباب مفتوحاً لأرى ان كنت تفعلين . والآن لن تهربي مني ابداً . لن تتركيني يا حبيبتي فعندما آخذ آخذ ، وأتمسك بما آخذه ولا أفلته ابداً .

ـ اريد ذلك يا رفاييل أريده !

كانت تهمس وازداد تعلقها بصدره ، وعرفت انها لم تعد تلك الفتاة المترددة التي كانت تحس انها تميل اليه لحظة لتعود فتهرب منه في اللحظة التالية . امرأة مولّهة . نعم تماماً كالنمرة التي تنفر من مروضها وتحبه في نفس الوقت .

بعد قليل من الوقت عاد الحبيبان الى القلعة ليخبرا الجميع بأن احتفالات العيد هذا العام ستشمل احتفالاً بالكرمة واحتفالاً بزواج سيد الجزيرة . ما كان اسعد الدونا مانويلا وهي ترى حفيدها يضع حول اصبع فانيسا خاتم الماس ، بينما تضع هي حول اصبعه خاتم

الزواج الذهبي . اما لوسيا مونتيز فقد كانت تنظر اليهما وعلى وجهها تعبير فلسفي ، بينما كانت باربرا تتأبط ذراع صديقها البرتغالي الشاب . من يدري ، ربما كانت تفكر بما قالته لها فانيسا ذات يوم . . . ان الحب الحقيقي كالوقت ، يبقى الى الأبد .

www.elromancia.com